فترة حاسمة من تاريخ المغرب

موقف ليبيا فيما بين قيام الفاطميين فى افريقية ونقلتهم الى مصر

للدكتور سعد زغلول عبد الحميد

مقدمـــة

يعتبر ظهور الدولة الفاطمية حدثا عظيما فى تاريخ الاسلام بوجه عام وفى تاريخ المغرب أو افريقيا الشمالية جميعا بوجه خاص . وذلك أن ما فشل العلويون فيه — وهو المطالبة بحقهم فى وراثة تركة النبى وهى الخلافة فى المشرق — قد نجح الفاطميون فى تحقيقه فى المغرب نجاحا كانت له آثاره الحاسمة فى تقرير مصير هذه البلاد لأمد بعيد . فبلاد المغرب ظلت منذ تمام فتحها ودخولها فى الاسلام جزءا لا يتجزأ من الامبراطورية العربية ، يخضع لوالى مصر فى كثير من الأحيان ، ويتبع الخلافة فى دمشق — رغم بعد الشقة — فى بعض الأحيان . ولكن كان من نتائج سوء الادارة الأموية واستبداد عمالها أن قامت البلاد بسلسلة من حركات العصيان — التى يمكن ان تكون استمراراً لثورات عهد الفتح الأول — لقيت الدولة كثيرا من المشقة فى اخمادها . ولم تكن لهذه الحركات الثورية صبغة سياسية ليس غير بل انها اتخذت طابعا دينيا باعتناق البربر من أهل البلاد لمذهب الخوارج المعارض للدولة ، والذى يطالب بالمساواة التامة بين جميع المسلمين دون اية تفرقة عنصرية . هذا الى جانب الحركات الدينية الانفصالية ، التى يسميها الكتاب زندقة أو ارتدادا عن الاسلام ، والتى قامت فى الأقاليم المنعزلة مثل جبال غمارة (الريف) أو جبال برغواطة (أطلس) ، والتى نشأت فى أول أمرها نشأة خارجية .

هاتان الصفتان هما اللتان تميزان أحوال المغرب خلال العصر الأموى وهما :

المقاومة العنيدة المعبرة عن السخط على سوء الادارة وفسادها ، وانتشار المذهب الخارجى الذى كان يؤيدها ويؤكد شرعيتها • ترتب على ذلك أن أصبح احتفاظ الدولة العربية بولايتها المغربية البعيدة من الأمور الصعبة ؛ وفى الفترة التى كانت الأسرة الأموية تلقى خلالها مصرعها على أيدى العباسيين ، سادت الفوضى السياسية فى البلاد التى أصبحت مثلا أنظار اللاجئين من المشرق والمغامرين وأصحاب المطامع الأنانية • ولكن ما أن تم الظفر للعباسين حتى عاد المغرب من جديد الى « أنس الطاعة » : فخضع عبد الرحمن بن حبيب بافريقية للمنصور ، وحتى عبد الرحمن الأموى الذى استقل بأسبانيا اعترف هو الآخر بالخلافة الجديدة وخطب فى أول أمره للعباسيين؛ فالخلافة كانت — حتى ذلك الوقت — واحدة لا تتجزأ ، اذ لم يتكلم الفقهاء فى امكانية تعددها الا فيما بعد ، وأمام الأمر الواقع • ولكن خضوع المغرب لخلفاء بغداد كان صحيحا من الناحية النظرية فقط، فالحقيقة أن سلطان العباسيين لم يتعد افريقية أى تونس • أما المغرب الأوسط فلم يكن خاضعا لأمراء القيروان ، رغم قيام بعض هؤلاء — مثل عبد الرحمن بن حبيب — بحملات بعيدة ضد قبائل زناتة بأرض تلمسان ؛ ولم يكن من الغريب أن قامت امارة الرستميين الخوارج بتاهرت حوالى منتصف القرن الثانى الهجرى (٨ م) وكذلك امارة المدراريين بسجلماسة بعيد هذا الوقت • وعلى ذلك فلا مجال للكلام عن خضوع المغرب الأقصى حيث قامت هرطقة برغواطة بأطلس وقام الأدارسة بفاس •

هذه الحالة التى هددت بانفصال المغرب عن مركز الدولة جعلت بغداد تفكر فى ايجاد حل مناسب لمواجهة المشكلة ، فرأت أن تسند ولاية افريقية والمغرب بشكل وراثى لأسرة قوية تقيها متاعب تقلب الأحوال هناك • وفعلا ظلت افريقية بين أيدى أفراد من أسرة المهلب بن أبى صفرة من عهد المنصور (سنة ١٥١ = ٧٦٨) الى عهد الرشيد (سنة ١٧٨ = ٧٩٤) • وفى سنة ١٨٤ = ٨٠٠ رأى الرشيد أن يستمر فى السياسة التى رسمها جده ، فعهد بافريقيه الى ابراهيم بن الأغلب ، واتفق معه على أن تستغنى الولاية عن المساعدة المالية السنوية التى كانت تدفعها مصر • وعلى أن تقدم — على العكس من ذلك — مبلغا سنويا الى خزانة بغداد[1] • وهكذا

(١) انظر ابن الاثير، ج ٦ ص ٦٢ — ٦٣

أصبحت افريقية وراثية فى أسرة الأغالبة ، وصارت أشبه بمملكة مستقلة لا تربطها ببغداد الا روابط رقيقة من ولاء للخليفة ، ودفع مبلغ زهيد لبيت المال •

وبذلك تحددت العلاقة بين المغرب وبين الخلافة ، وشهدت البلاد نوعا من الاستقرار بفضل هذا النظام الجديد ، ساعد على انتشار الاسلام واستمرار تعريب البلاد بشكل منتظم مطرد • فالأغالبة — رغم أنهم كانوا أمراء لكل بلاد المغرب من الناحية النظرية على الأقل — قبلوا الأمر الواقع وتركوا جيرانهم المناهضين للخلافة فى هدوء • فلم ينهكوا قواهم فى صراع ضد أمراء تاهرت أو أمراء فاس• ومع أن ذلك لم يكن فى صالح الخلافة فقد كان فيه خير للاسلام : فاذا كانت القيروان عملت على انتشار السنة وخاصة المذهب المالكى فان تاهرت نشرت الاسلام فى المغرب الأوسط وحتى الصحراء على المذهب الاباضى ، وهو مذهب المعتدلين من الخوارج الذى لا يختلف كثيرا عن مذاهب أهل السنة حتى أطلق عليه حديثا اسم « المذهب الخامس »[1] ؛ وهذا يفسر كيف أن امارة سجلماسه الصفرية كانت تدين بالولاء لخلافة بغداد • وكذلك كان الحال بالنسبة لفاس ، فرغم أن الأدارسة من العلويين الا أنهم لم يكونوا شيعة من حيث الاعتقادات ؛ ولو كانوا كذلك ، فهم معتدلون بشكل لا يفرقهم عن أهل السنة ، ولذلك يطلق الكتاب على دولتهم اسم الدولة الهاشمية[2] مثلهم فى ذلك مثل العباسيين • وعلى ذلك قامت فاس بدور مهم فى نشر الاسلام السنى فى المغرب الأقصى ، وجهدت صادقة فى القضاء على هرطقات البربر فى جبال مراكش • وهكذا بفضل هذه المجهودات المنفردة فى افريقية والمغرب الأقصى اشتركت الدول الثلاث — دون خطة مرسومة — فى نشر الاسلام السنى بالمغرب بالشكل الذى يوجد عليه حتى اليوم •

من كل ما تقدم يمكن أن نقدر مدى الانقلاب الذى حدث فى المغرب من أقصاه الى أقصاه بعد نجاح الدعوة الشيعية فى أرض كتامة ، وبعد ما حدث من خروج هؤلاء لغزو افريقية وقلب الأغالبة باسم الفاطميين ، ثم من القضاء على مملكة الخوارج بتاهرت وامارتهم بسجلماسة ، وما حدث من بعد من انهاء حكم الأدارسة فى فاس ؛ وقطع علاقة المغرب بالمشرق وبالخلافة ببغداد • فقد خاب أمل أهل

(١) انظر G. Demonlynes, Les Institutions Musulmanes, p. 38

(٢) انظر ابن عذارى ، البيان المغرب ، طبعة بيروت ، ج ١ ص ١٠٠

البلاد بل والذين أقامـوا صرح الدولة الجديدة بسـواعدهم فى حـكم الائمة المعصومين ، واتضح لهم أن ما نودى به من انتهاء عهد الجور والفساد ، وحلول عهد العدل والاصلاح لم يكن الا سرابا. فالى جانب البدع الدينية الجديدة من اعلان عصمة الامام وتقديسه ، وتناول بعض الشعائر أو الطقوس الدينية المتعارف عليها بالحذف والتغيير ، وتجريح كبار الصحابة وأئمة الاسلام ــ مما لا يمكن أن يقبله شعب نشـأ على السنة وتعصب لمذهب مالك منذ أجيـال ــ انتهـج الفاطميون سياسة مالية متعسفة ، على عكس ما بشر به الداعى فى أول الأمر ، فاشتطوا فى جمع الضرائب ، وتفننوا فى تنويعهـا حتى فرضوا على الحجـاج جميعا أن يمروا بالمهدية حتى يدفعوا ضريبة الحج[1] . وعلى ذلك لم يكن من الغريب على شـعب افريقية بل والمغرب جميعا أن يكره ذلك الحكم الذى جمع الى جانب مفاسـده الدينية ، مساوىء سياسية وأعباء مالية بغيضة .

وعرف الفاطميون هذا التباعد الروحى بينهم وبين الشعب منذ البداية وأحسوا بعدم الاطمئنان فى مستقرهم الجديد ، فاتخذوا الاجراءات المناسبة لمواجهة الموقف. والظاهر أن هدفهم لم يكن هو الاستقرار فى افريقية بل انهم اعتبروها خطوة أولى أو مرحلة فى الطريـق الى المشرق أى الى مصر والحرمين وبغداد[2] . ولتحقيـق هذا الهدف الأبعد أخذوا يعدون العدة من تجميع الموارد البشرية والمالية ، فكان من الطبيعى أن يستمروا فى سياستهم المالية الجائرة التى ضـج منها أهـل البلاد . وهكذا تركزت سياستهم المؤقتة فى افريقية فى نقطتين : أولاهما العمل على فتح مصر ، وثانيتهما اعتصام الأسرة فى مكان حصين يكفيهم شرور تقلبات الشـعب المعادى لهم . وفعلا قام أول جيش فاطمى بمحاولة فتح مصر سنة ٣٠١ = ٩١٢ بعد أربع سنوات فقط من دخول عبيدالله القيروان، وقريب هذا الوقت (ما بين ٣٠٠ ــ ٣٠٣=٩١٣ ــ ٩١٥) تم اختيار موقع المهدية على بعد ستين ميلا من القيروان لتبنى فيه مدينة ملكية حصينة . وبعد أن تم بناء تحصيناتها عبر المهدى الذى نسبت

(١) ابن عذارى، البيان المغرب، ج ١ ص ٢٦٠ (أحداث سنة ٣٠٩) .
(٢) انظر سيرة جوذر (نشرة كامل حسين وشعيرة) ، ص ١١١ حيث يبعث المعز لجوذر بعض الدنانير المضروبة فى مصر ويرجـو أن يطول عمره حتى يحج معـه ويعطيه مما يضرب له ببغداد .

اليه عن اطمئنانه فقـال : « أمنت على الفاطميـات »[1] . وفـعلا قامت المهديـة بدورها هذا خير قيام فحمت القائم ثم المنصور من خطر الثورة الخارجيـة التى تزعمها أبو يزيد وشعب افريقية بعد أن كانا قاب قوسين من الهلاك أو أدنى . أما عن النقلة الى المشرق فانها تحققت على عهد الرابع من خلفائهم وهو المعز لدين‌الله بعد ٦٤ عاما من دخولهم القيروان ؛ اذ خرج المعز سنة ٣٦١ = ٩٧٢ من افريقيـة وفى نيته ألا يعود اليها ، فتقدمت موكبة توابيت آبائه وأجداده الذين لم يشأ أن يتركهم فى أرض المهجر المؤقت .

رحل الفاطميون اذن من افريقية وتركوا أمرها لبنى زيرى الصنهاجيين بعد أن خلقوا فى المغرب حالة من القلق الروحى الشديد هى التى وصفها جورج مارسيه بحق بأنها «الأزمة الفاطمية»[2] . فالمذهب الشيعى لم يستطع (Georges Marçais) أن يغرس جذوره بعمق فى أرض السنية الخالصة ــ التى اتخذت فى جهـات شكل مذهب الخوارج المتزمتين ؛ فكان من الطبيعى أن تعود الأمور الى مجراها المعتاد ؛ وهذا ما حدث فى مصر أيضا بعد مائتى عام كان المذهب الاسماعيلى فيها هو المذهب الرسمى ، اذ عادت السنة الى عهدها الأول على يدى صلاح الدين . فبعد ثمانين عاما من خروج المعز الى مصر (أى سنة ٤٤٠ = ١٠٤٨) أعلن رسميا الغاء المذهب الشيعى من افريقية على عهد المعز بن باديس ، وقطعت الدعوة للفاطميين بل وأعلنت لعنتهم من أعلى المنابر ، وذلك بعد قيام حركات شعبية عنيفة ضد الشيعة ومقاطعة الناس للمساجد .

هذه العودة الى السنية كانت ــ بالنسبة للمغرب ــ ذات نتائج أهم وأخطر من النقلة الى التشيع على أيدى عبيد الله وخلفه . فلم يقتصر الأمر على قطع العـلاقة بالفاطميين فى مصر ، بل انتهى الى قلب الاوضاع فى افريقية رأسـا على عقب من النواحى السياسية والاقتصادية والبشرية انقلابا كانت له آثاره الدائمة وصـداه البعيد فى كل المغرب حتى المحيط الأطلسى . فقد قرر الفاطميون الانتقام من البلاد التى عاشوا فيها لحظات من المجد وفترات من الخوف ، والتى نزعت النقـاب عن

(١) ابن الأثير، الكامل، ج ١ ص ٣٦
(٢) انظر
G. Marçais, La Berbérie Musulmane et l'Orient au Moyen Age, p. 132 et suiv.

وجهها الحقيقى وكاشفتهم العداء . فأطلقوا عليها قبائل هلال وسليم فأحلت بها الخراب الاقتصادى والفوضى السياسية . فترك بنو زيرى ، داخل البلاد الى السواحل حيث داهمهم خطر النورمانديين من صقلية ، واستدعى الأمر تدخل البربر من المرابطين ثم الموحدين الذين ضموا افريقية الى املاكهم ووحدوا المغرب جميعا مع الاندلس ورحلوا العرب الى المغرب الأقصى وبذلك تم تعريب المغرب جميعا فى القرن الثانى عشر الميلادى ورغم انقضاء سلطان العرب ، وانتهى دور القيروان كعاصمة سياسية ومركز حضارى . وانتقل مركز الثقل من افريقية الى المغرب الأقصى الذى قام يحمى الاسلام ضد الخطر النصرانى المندلع من صقلية ومن اسبانيا . وهكذا قدر للمغرب الذى استقل تماما عن المشرق أن يعرف أعظم فترات مجده السياسى والحضارى على عهد الدولتين الوطنيتين الكبيرتين ، دولتى المرابطين والموحدين ، وبذلك أصبح له طابعه الخاص وصفاته المميزة .

البلاد : ليبيـــة

خلال هذه الفترة الحاسمة من تاريخ المغرب الاسلامى ، نأمل أن نلقى بعض الأضواء على موقف « ليبيا » الحالية فيما بين دخول الفاطميين القيروان واستقرارهم فى القاهرة . والحقيقة أن المعلومات ليست كثيرة عن هذه الفترة ، وذلك طبيعى فهى فترة اضطراب عام وقلق روحى لا تدع مجالا مناسبا للانصراف الى الكتابة . وحتى النذر اليسير الذى كتبه المعاصرون من المغاربة لم يصل الينا بل ضاع معظمه وسط هذه الدوامة الهائلة فلم يبق لنا منه الا نتف فى كتب المتأخرين . هذا عن المغرب بصفة عامة ، أما عن ليبيا بالذات فالأمر ليس بأحسن من ذلك بل هو أشد وأعسر : فالمنطقة الواقعة ما بين مصر وافريقية لم تحظ هى الأخرى الا بالقليل النادر من اهتمام هؤلاء الكتاب، وربما كان لهم العذر فى ذلك ، فالبلاد لم تكن فى الحقيقة الا طريقا موصلة أو منطقة فاصلة بين البلدين اللذين حبتها الطبيعة بظروف أسخى وأكرم . ولكن ليس معنى هذا أن المنطقة لم تكن مهمة أو أنها لم تقم بدور خطير فى هذه الأحداث الجسام ، فحسبها مدينتاها الكبيرتان « الأزليتان » : برقة (أو أنطابلس) وأطرابلس . أما برقة التى أعطتها تربتها الغنية ذات اللون الأحمر اسم « المدينة الحمراء »[1] مثلها فى ذلك مثل مراكش وغرناطة ، فاشتهرت بزراعاتها ومراعيها، كما كانت تعتز بجبلها الدائم الخضرة ، الكثير المياه والبساتين . أما عن

(١) البكرى ، المسالك والممالك ، طبعة De Slane ص ٤ ؛ ياقوت ، معجم البلدان ، طبعة

شهرتها الحالية فى تربية الماشية ، فهى تركة العهود الماضية . فالمعروف أن اكثر ذبائح أهل مصر والاسكندرية كان من غنم برقة « لعظم خلقها وكثرة شحمها ولذة لحمها »[1] .

وأما طرابلس الميناء البحرى والمدينة التجارية ، وأكبر حواضر ليبيا ، فكانت تتباهى بكثرة أسواقها وفنادقها وحماماتها[2] . هذا اذا تركنا ما كان من الذكر لأجدابية ذات البساتين والنخيل والحمامات والفنادق الكثيرة ، والاسواق الحافلة المقصودة[3] . أو ما كان لسرت المدينة البحرية الكبيرة التى اشتهرت كسوق مهم رغم ما عرف به أهلها من سوء معاملتهم[4] على عكس أهل طرابلس الذين وصفوا بأن « لهم سمح فى تجاراتهم ، وأنهم أحسن الناس معاملة ضد أهل سرت »[5] . أما عن صحراواتها وهضابها وبواديها وما فيها من محلات العرب والبربر ، فلا يمكن اهمالها ، كما قد يظن ، فقد كان لها دورها فى توجيه تاريخ البلاد ، كما كان لها نصيبها فى تحمل المصير المشترك . وهنا لا يمكن السكوت عن جبل نفوسة ومدنه الكثيرة وقراه التى تزيد على ٣٠٠ قرية[6] ، ولا عن مدينة غدامس الصحراوية الكثيرة النخل والمياه ، والتى تخصصت فى دباغة الجلود فذاعت شهرة الجلد الغدامسى[7] . أما زويلة فكانت سوق الرقيق الذى يمير افريقية بالعبيد وبمنتجات

بيروت، ج ٤ ص ٣٨٨ ، الادريسى طبعة Dozy ، ص ١٣١ ؛ وانظر محمد الطيب بن احمد ادريس الأشهب، برقة العربية امس واليوم، طبع القاهرة ١٩٤٥، ص٣٩؛ وكذلك مصطفى عبد الله بعيو ، المجمل فى تاريخ لوبيا ؛ ص ٢٦ وهامش ١ (عن مدينة المرج حاليا) .

(١) انظر كتاب الاستبصار، طبعة جامعة الاسكندرية، ص ١٤٣

(٢) انظر البكرى الذى ينقل عنه المتأخرون ، ص ٧ — ٨ . وحتى بعد خراب البلاد على ايدى بنى هلال وبنى سليم ظلت طرابلس المدينة الوحيدة التى يجد فيها المسافر حماما حتى يصل الاسكندرية (القلقشندى ، صبح الاعشى ، ج ٥ ص ١٠٤)

(٣) بكرى ، ص ٥ .

(٤) بكرى ، ص ١٥ ، ١٧ .

(٥) غاب الاستبصار ، ص ١١٠ .

(٦) بكرى ، ص ٩ ، وانظر الادريسى ص ١٠٥ .

(٧) البكرى ، ص ١٨٢ ؛ الاستبصار ، ص ١٤٥ ؛ القلشندى ، صبح الاعشى ، ج ٥ ص ١٠٨ .

بلاد السودان[1] .

وأول ما نلاحظه أن اسم « لوبية » الذى اتخذته البلاد الآن فى شكل « ليبيا » ، ليس له ذكر فى مصادر هذه الفترة ، وان كانت مصادر عهد الفتوح الأولى تذكره ما بين الحين والحين مصحوبا باسم مراقية . وان لم تبين ماهيته بوضوح . فالطبرى مثلا لا يذكر لوبية عند كلامه عن فتح انطابلس وبرقة[2] . أما ابن الأثير الذى ينقل عن الطبرى ويضيف اليه ، فانه يذكر لوبية ومراقية ولكن ليس بمناسبة افتتاحهما أو دخول العرب فيهما وانما بمناسبة الكلام عن بربر لواته . فيقول ان أصل البربر من نواحى فلسطين وانهم ساروا الى الغرب حتى انتهوا الى لوبية ومراقيه ومنها تفرقوا فى أنحاء المغرب . وفيما عدا ذلك يذكر : « أنها كورتان من كور مصر الغربية »[3] دون أن يحدد موضعهما ولو بشكل تقريبى . ترتب على ذلك أن المتأخرين من أصحاب الموسوعات لم يستطيعوا أن يحددوا بشىء من اليقين موضع « كورة لوبية ومراقية » . فاكتفى ياقوت بالقول ، بشكل عام ، ان لوبية مدينة بين الاسكندرية وبرقة ، ثم عاد وبين أن الاسم يرجع الى أصل يونانى وقد أطلق على الجزء المعروف قديما من شمال القارة الافريقية ، كما أطلق على القارتين الأخريين اسما أوروبا وآسيا[4] . أما القلقشندى فانه اكتفى بالظن فقال : « والظاهر أن لوبية غربى مريوط ، وأن مراقية غربى لوبية ، وهى آخر الديار المصرية من جهة الغرب »[5] . واذا أخذنا بهذا الرأى يكون اسم لوبية قد أطلق على جزء من صحراء مصر الغربية وهذا مقبول حسب مفهوم الكلمة عند اليونان ، وهو ما أخذ به الكتاب العرب ، وذلك ما يؤيده حديثا اطلاق اسم الصحراء الليبية على صحراء مصر الغربية وامتدادها فى ليبيا جميعا .

ويرجع الفضل للمقريزى الذى يبين بوضوح أن آخر حدود مراقيه الغربية هى مدينة برقة نفسها وذلك عند المنطقة التى ينحرف فيها الطريق نحو الجنوب بحذاء

(١) انظر البكرى ، ص ١٠ وتابع ؛ ياقوت ، معجم البلدان (طبعة De Goeje) ج ٣ ص ٩٦٠ — ٩٦١ .
(٢) الطبرى ، طبعة القاهرة ١٩٣٩ ، ج ٣ ص ٢٢٧ .
(٣) ابن الأثير ، طبع القاهرة ١٣٥٦ هـ ، ج ٣ ص ١٣ .
(٤) معجم البلدان ، طبعة القاهرة ، ج ٧ ص ٣٤١ . وانظر
CH. - André Julien, Hist. del'Afrique du Nord (Des orgines à la Conquête Arabe) Paris 1951, p. 9.
(٥) صبح الأعشى ، ج ص ٣٩١ .

ساحل خليج سرت أى نحو أجدابية[1] . وعلى ذلك فاذا كانت مدينة برقة خارجة عن نطاق كورة لوبية ومراقية ، فان هذه الكورة أو مراقيه على الأقل كانت تشمل المنطقة الشرقية من ولاية برقة الحالية . ويؤيد ذلك ما ينقله المالكى فى رياض النفوس بشأن انسحاب زهير بن قيس البلوى من افريقية عقب استشهاد عقبة بن نافع فيقول: «فأقام زهير بالقيروان يسيرا ثم خرج الى مصر ، فوصل الى لوبيا ومراقية وذلك سنة خمسة وستين ، فوجد يزيد قد توفى وعبد الله بن الزبير خليفة بمكة ، ومروان ابن الحكم أميرا بالشام[2] . واذا ما عرفنا أن زهيرا لم يعد الى مصر عقب انتصار كسيلة بل انه رابط فى برقة الى أن ولاه عبد الملك على افريقية[3] ، اتضح أن المقصود بلوبيا ومراقيه هو ولاية برقة بصفة عامة . واذا ما عرفنا أيضا أن من المرجح أن تكون الأجزاء الشرقية من اقليم برقة وكذلك الأجزاء الشرقية المحيطة بمدينة قورينا القديمة (شحات حاليا) كانت قد ضمت معا منذ القرن الثانى الميلادى تحت اسم « مَرْمَرِيكا »[4] ، ادمجت فى مصر اتضحت صحة تحديد المقريزى «لمراقية» ، التى هى تعريب لاسم « مرمريكا »[5] ، من أنها كانت تشغل الجزء الشرقى من اقليم برقة ، وتبين أن العرب ورثوا التقسيم الرومانى القديم للبلاد .

نستنتج من كل ذلك أن التسمية الحديثة للبلاد وهى « ليبيا » ذات أساس تاريخى صحيح مثلها فى ذلك مثل برقة أو طرابلس . وهذا لا يتعارض مع يذكره القلقشندى أو ابن تغرى بردى من أن لوبية أو لوبية ومراقية « كورة من كور مصر الغربية »[6] ، فالجزء الشرقى من برقة على الأقل كان محسوبا من الديار المصرية[7] ،

(١) الخطط ، ج ص ١٦ (وفى آخر أرض مراقية تلقى أرض انطابلس وهى برقة . . . فاذا بلغت آخر أرض مراقية عدت ذات الشمال واستقبلت الجنوب وتسير فى الرمل وانت متوجه الى القبلة يكون الرمل من مصبه عن يمينك الى افريقية وعن يسارك من أرض مصر الى أرض الفيوم منها . . .) .
(٢) المالكى ، رياض النفوس ، طبعة القاهرة ١٩٥١ ، ج ١ ص ٢٩ .
(٣) ابن الأثير ، (طبعة ١٣٥٦ هـ) ج ٣ ص ٣٠٩ ؛ وانظر حسين مؤنس ، فتح العرب للمغرب ، ص ٢٠٥ وتابع .
المغرب ، ص .
(٤) انظر مصطفى بعيو ، مجمل تاريخ ليبيا ، ص ٤١ . وانظر عن ضم برقة وطرابلس الى مصر على عهد روما وبيزنطة
M.A. Chcira, La Lutte entre Arabes et Byzantins, p. 63 ex note 3
(٥) المالكى ، رياض النفوس ، هامش ١ ص ٢٩ (لحسين مؤنس) .
(٦) صبح الأعشى ، ج ٣ ص ٣٩٠ ؛ النجوم الزاهرة ، طبعة مصر ، ١٩٣٢ ، ج ٣ ص ١٨٦ ، ١٨٧ .
(٧) القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج ٣ ص ٣٩٥ — ٣٩٦ .

بل وأكثر من هذا كانت الاسكندرية وبرقة تكونان فى أوائل القرن الرابع الهجرى « مديرية » واحدة لها واليها المستقل عن والى مصر[1] .

وعلى كل حال لا يتكلم الكتاب الا عن ولايتى برقة المتاخمة لمصر وطرابلس المتاخمة لافريقية، وكل منها تعتبر نظريا على الأقل من أعمال الولاية المجاورة لها. والحقيقة أن الحدود بين هذه البلاد جميعا ليست الا اعتبارية ، ترسم الآن فى خطوط على الخرائط ولا يوجد لها أثر على الطبيعة ، فكل منها امتداد طبيعى للأخرى[2] . ولكن اذا كانت مدينة طرابلس قد اعتبرت أول مدينة افريقية[3]، فان الأمر لم يكن كذلك بالنسبة لسرت التى كانت مع أجدابية تتبع الخلافة العباسية وتكون مثل برقة عملا من أعمال مصر[4] .

هذه كانت حالة مدن ليبيا الرئيسية ــ الساحلية منها أو القريبة من الساحل ــ من الناحية الادارية والسياسية عند استيلاء الفاطميين على افريقية . أما الهضاب والصحارى والبوادى فلا يعرف موقفها بالضبط ، الا أن قبائلها كانت تتمتع بحرية فعلية ، ولم يكن لحكومة القيروان أو لحكومة الفسطاط سلطان عليها ، مثل ذلك قبائل جبل نفوسة الخارجية غربى طرابلس ، وقبائل لواتة وهوارة التى كانت تقيم فى صحراء طرابلس وتسبب للمدينة كثيرا من المتاعب .

الفترة الأولى

أول ما يلفت النظر هو أنه بمجرد استقرار الفاطميين فى افريقية ، وقفت مدينتا

(١) انظر عريب بن سعد القرطبى (صلة تاريخ الطبرى، طبعة مصر، ص ٣١) الذى يورد أن برقة كانت تابعة لوالى الاسكندرية القاسم بن سيما سنة ٣٠١ ؛ وانظر ابن تغرى بردى حيث يقول أن أهل لوبية ومراقية أجلوا الى الاسكندرية سنة ٣٠٤ = ٩١٦ خشية العسكر الفاطمى (النجوم الزاهرة، ج ٣ ص ١٨٦) أو ان عسكر الخليفة أجلى حباسة عن الاسكندرية وبرقة سنة ٣٠٢ = ٩١٤ (ج ٣ ص ١٧٣) .

(٢) أنظر P. A. Hubac, Tunisie (coll. l'Union Fr.) p. 7

(٣) ياقوت، معجم البلدان، طبعة بيروت، ج ٢ ص ٢١٧ ؛ صبح الأعشى، ج ٥ ص ١٠٤ (ينقل عن ياقوت)، ج ٥ ص ٩٩ . ولهذا السبب انضوت طرابلس تحت حكم الفاطميين دون أى مجهود بمجرد دخول أبى عبد الله القيروان، اذ أرسل قوة من رجاله الى طرابلس أحضرت أخاه أبا القاسم الذى كان مستقلا بها وكذلك أم المهدى عبد الله . أنظر ابن عذارى، البيان المغرب، ج ١ ص ٢٠٥ ــ ٢٠٦ .

(٤) ابن الاثير، ج ٨ ص ٢٤٥

ليبيا الكبيرتان موقفا غريبا بالنسبة للحكومة المركزية التى تتبعها كل منها . ولكن هذه الغرابة لا تلبث أن تزول اذا عرفنا أن البلاد جميعا كانت تحاول جاهدة وبصفة مستمرة ان تتخلص من سلطان جارتيها الكبيرتين وأنها عملت ــ منذ القدم ، وما بين الحين والحين ــ على أن يكون لها كيانها الخاص وشخصيتها المستقلة ، وأنها كانت تنجح فى ذلك فى كثير من الأوقات . انتهزت المدينتان اذن فرصة الانقلاب السياسى الذى حدث فى المغرب ، ورأتا أن تجربا حظهما فى التحرر ، فثارتا فى وقت متقارب على حكومتيهما . وبدأ الاضطراب فى ولاية طرابلس والخروج على الفاطميين سنة ٢٩٨ = ٩١١، فثارت قبائل هوارة بقيادة أبى هارون الهوارى، وتحالفت معها فى العصيان جماعات من زناته ولماية ، وزحف الجميع الى المدينة وضربوا حولها الحصار . ولكن عبيد الله المهدى تمكن من تشتيت شمل الثوار فأخرج اليهم قائده أبا زاكى تمام بن معارك الاجابى الذى قتل منهم مقتلة عظيمة ، وبعث برؤوس القتلى وآذانهم الى رقادة حيث نصبت[1] . ورغم الحملات التأديبية والانتقامية التى وجهها عبيد الله ضد لماية وزناتة فان هذه الثورة كانت تمهيدا لثورة المدينة نفسها بعد سنتين . ففى سنة ٣٠٠/٩١٢ــ٩١٣ أعلن الطرابلسيون العصيان وقتلوا الحامية الكتامية وانتخبوا قائدا منهم هو محمد بن اسحق المعروف بابن القرشى . ووجه المهدى لحرب المدينة الثائرة جيشا بقيادة ابنه أبى القاسم ، الذى كان قد حضر لتوه من حرب العصاة فى بلد كتامة ، كما وجه اسطولا بحريا يتكون من ١٥ مركبا حربية . وقاومت طرابلس مقاومة شجاعة استمرت أشهرا وأظهر أهلها ضروبا من البسالة والبطولة . فما ان وصلت الحملة البحرية حتى أخرجوا اليها مراكبهم التى نجحت فى احراقها والقضاء على من فيها من المقاتلة ، وبذلك سجلوا أوائل مفاخرهم كبحارة مهرة . أما أبو القاسم فانه اتخذ طريق البر وعرج على منازل قبائل هوارة ، ثائرة الأمس ، فأوقع بها ثم نزل على طرابلس وشدد الحصار عليها . ولم تستلم المدينة بالأمان الا بعد أن نفد منها القوت حتى أكل الناس الميتة . وقبض أبو القاسم على زعماء الثورة وعلى رأسهم محمد بن اسحق ، وصحبهم معه الى القيروان حيث

(١) ابن عذارى، البيان المغرب، ج ١ ص ٢٢٥ ــ ٢٢٦ .

شهر بهم[1] ، أما عن أهل طرابلس فأنهم أغرموا كل نفقات الحملة وترك أمر تعذيبهم واستخلاص الأموال منهم الى القائد خليل بن اسحق — الذى سيفتخر فيما بعد بمذابحه فى أهل صقلية — وهو من مواليد طرابلس ومن أبناء جندها[2] .

وفى نفس هذا الوقت ثارت برقة، ولكن ضد حكم العباسيين الذين أنهوا حكم الطولونيين فى مصر . وينهم من رواية ابن تغرى بردى[3] أن الفاطميين كان لهم يد فى تدبير الاضطراب اذا أثاروا الأعراب فى المنطقة فخرج هؤلاء يهاجمون حدود مصر . وكان ذلك بمثابة التمهيد لثورة المدينة نفسها التى اتهمت بأن أغرقت فى الدم ؛ اذا اعتبرت هذه الثورة خيانة من المدينة التى تعد ثغرا يحمى مصر من الخطر الشيعى المحدق بها ، وأخمدت دون رحمة أو شفقة ، وانتقم من الثوار انتقاما يعبر عن الغيظ والتشفى — الذى يذكر بانتقام عبد الرحمن الداخل من الثوار العباسيين سنة ١٤٦/٧٦٣ — فقطعت أنوفهم وآذانهم وأرسلت الى المشرق[4] .

وشجعت ثورة برقة عبيد الله فعمل على الاسراع فى محاولة غزو مصر . ففى السنة التالية (٣٠١/٩١٣) بعث بقائده حباسة بن يوسف على رأس قواته نحو المشرق ، وكانت الحملة نزهة عسكرية : اذ دخل حباسة مدينة سرت بالأمان ودون مقاومة بعد أن فر من كان بها من الجند العباسى ، وبعث بالنبأ سريعا فأعلن فورا من أعلى منابر افريقية . وتابع حباسة تقدمه فدخل أجدابية بالأمان أيضا وهربت الحامية العباسية . وأتبع ذلك بدخوله برقة التى راحت ضحية انتقام الفاطميين بعد ان كانت بالأمس فريسة انتقام العباسيين ، فقتل من أهلها عدد كبير ،ثم أغرم الأحياء مغارم ثقيلة بلغ بعضها مائة الف مثقال فى يوم واحد . وكانت حجة حباسة فى تنكيله بالبرقيين أنه انتقم لما لحق الامام عبيد الله بالمدينة من الاهانة ، عندما دخلها وهو

(١) ابن عذارى، البيان المغرب، ج ١ ص ٢٣٣ — ٢٣٤ ؛ وانظر ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة، ج ٣ ص ١٧٤ .

(٢) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٢٥ ؛ وأنظر عريب بن سعد (صلة تاريخ الطبرى ، ص ٣٧) الذى يكتفى بذكر انه فتح طرابلس وأخذ منها أموالا عظيمة ؛ وانظر التيجانى، الرحلة ، طبعة تونس ١٩٢٧ ، ص ١٧٢ .

(٣) النجوم الزاهرة ، ج ٣ ص ١٧٢ .

(٤) ابن الاثير، ج ٨ ص ٢٨ .

قادم من مصر ، اذ سرقوا ماله وشتموه ولطموه[1] . ووصل حباسة الى الاسكندرية بعد أن هزم جيشا عباسيا فى حدود برقة ، ولحق به أبو القاسم بن عبيد الله واتجه الاثنان نحو الفيوم ولكنهما اختلفا فعاد حباسة مخالفا وانسحب الأمير الفاطمى أمام قوات العباسيين[2] .

وعند عودة أبى القاسم (سنة ٣٠٢/٩١٤) مر ببرقة فخرج أهلها لاستقباله وتهنئته بالسلامة . ورد ولى العهد الفاطمى على تحيتهم بأنه ما عاد من مصر الا لطلب حباسة ليعاقبه على ما فعله بهم، وأمرهم بتجديد ما أصاب المدينة من الهدم والخراب، ثم ترك لديهم حامية من كتامة وعاد الى والده . ولكن ما ان عرفت عامة الشعب بفشله فى مصر، وباقتراب الجيش العباسى الذى كان يتعقبه، حتى قامت الى الحامية الفاطمية فقتلت أفرادها وأعلنت الثورة[3] . واضطر عبيد الله المهدى الى أن يسير الجيوش من جديد ضد برقة بقيادة أبى مدين بن فروخ اللهيصى . وقامت المدينة طوال عام ونصف عام وهى محاصرة أشد الحصر، ولم تستسلم الا بعد أن فنى أكثر أهلها وذلك فى سنة ٣٠٤/٩١٦ — ٩١٧ ، فاستصفيت أموال من بقى منهم وأرسل

(١) ابن عذارى، البيان المغرب ، ج ١ ص ٢٣٥ — ٢٣٦ ؛ الطبرى (طبعة ١٣٥٨) لا يذكر الا دخول اصحاب عبيدالله الذى يسميه «ابن البصرى» برقة وطردهم عامل السلطان عنها (ج ٨ ص ٢٥٦) ؛ اما عريب بن سعد (صلة تاريخ الطبرى، ص ٣٤) فيقول انه وردت كتب التجار بدخول الشيعة برقة وعظم ما احدثوا فى تلك الناحية. وانظر المقريزى (اتعاظ الحنفا ، نشر الشيال ، القاهرة ١٩٤٨ ، ص ٨٣ — ٨٤ وهامش ٢) حيث يوجد نص يظن — رغم عدم وضوحه — أنه متعلق بهذه الحادثة. هذا النص يقول انه بعد خروج المهدى من مصر « خرج عليه عدة من اللصوص بموضع يقال له « الطاحونة » فاخذوا بعض متاعه ومنه كتب وملاحم كانت لآبائه فعظم امرها عليه . فيقال انه لما خرج ابنه ابو القاسم ، فى المرة الأولى ، الى الديار المصرية أخذها من ذلك المكان . وانظر ابن الاثير (ج ٨ ص ٣٢ ، ٣٤) الذى يجعل قيادة حملة سنة ٣٠١ الى أبى القاسم بن المهدى ، ويجعل مسير حباسة الى الاسكندرية سنة ٣٠٢ (كما هو موجود فى الطبرى) ، وهذا ما لا يتفق مع رواية ابن عذارى المغربية التى أخذنا بها .

(٢) ابن عذارى ، البيان المغرب، ج ١ ص ٢٣٦ ؛ وقارن ابن الاثير ، ج ٨ ص ٣٤ ؛ وابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٣ ص ١٧٢ — ١٧٣ .

(٣) ابن عذارى، البيان المغرب ، ج ١ ص ٢٤٠ ؛ وانظر ابن تغرى بردى (النجوم الزاهرة ، ج ٣ ص ١٧٣) الذى يقول ان عسكر الخليفة أجلى حباسة عن الاسكندرية وبرقة .

زعماء الثورة الى المهدى فأمر بقتلهم[1] . وظل أبو مدين بن فروخ واليا لبرقة الى حين وفاته فى سنة ٣٠٦/٩١٩ وهى السنة التى دخل فيها الجيش الفاطمى الى مصر للمرة الثانية[2] .

وهكذا دخلت مدن ليبيا تحت الحكم الفاطمى وضمت الى افريقية ، وعين لها العمال والجباة والقضاة من الاسماعلية[3] ، الا أن خضوعها ظل مؤقتا كالمعتاد . أما البوادى فرغم أن الفاطميين كانوا يكتفون منها بالركون الى الهدوء والسكينة بعد دفع ما هو مقرر عليها من الأموال ، فانها عمدت كعادتها الى اثارة الاضطراب ومهاجمة المدن والحضر كلما وجدت الى ذلك سبيلا . ويعبر عن ذلك ما ينسب الى المعز من أنه أوصى بلكين بن زيرى بألا يرفع الجباية عن أهل البادية ولا السيف عن البربر وأن يفعل مع أهل الحاضرة خيرا[4] . ففى سنة ٣١٠/٩٢٢ — ٩٢٣ ثارت قبائل نفوسة فى منطقتها الجبلية المنيعة ، والخارجة أبدا على السلطان بزعامة رجل يدعى «أبو بطة» . وعندما سير اليهم عبيد الله قائده على بن سليمان تمكنوا من مفاجأة قواته التى انهزمت أمامهم ، واضطر القائد الى الالتجاء الى مدينة طرابلس . وسير المهدى أمدادا جديدا الى على بن سليمان الذى عاود ضرب الحصار حول المنطقة الثائرة ، ولكنه لم يصل الى نتيجة حاسمة[5] . وفى سنة ٣١٦/٩٢٨ اضطرب البربر فى منطقة برقة فسار اليها أبو القاسم بن عبيد الله وضرب الحصار على حصنهم المعروف بأغزر وتمكن من هدم أسواره على المدافعين الذين أحرقوا أمتعتهم وعرقبوا دوابهم ومواشيهم ودافعوا عن أنفسهم دفاع اليائس المستميت[6] .

(١) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ١ ص ٢٤١ .
(٢) نفس المصدر ، ج ١ ص ٢٥٤ ؛ وانظر الطاهر احمد الزاوى ، الفتح العربى فى ليبيا ، ص ١٦٧ (يكتب أبو مدينى بدلا من « أبو مدين ») .
(٣) هناك ذكر لبعض عمال وولاة وقضاة طرابلس وبرقة فى هذا العصر فى كتاب ابن عذارى (انظر البيان المغرب ، ج ١ ص ٢٥٣ ، ٢٦٥ ، ٢٩٠ ، ٢٩١) .
(٤) انظر ابن خلكان (طبعة ١٩٤٨ ، ترجمة بلكين بن زيرى) ، ج ١ ص ٢٥٧ .
(٥) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٦٣ .
(٦) هنا لا يمكن التأكد من صحة نص ابن عذارى (البيان ، ج ١ ص ٢٧٢) والارجح أن النص محرف وأن المقصود بموضع هذه الواقعة ليس برقة اذ تتمته أن هواره هوارة ولاية خضعتا اثر ذلك فأمنهم ابو القاسم الذى سار الى تاهرت . وعلى ذلك ليس من البعيد أن يكون حصن اغرر المذكور فى المغرب الأوسط .

وفى نفس هذه السنة كان أبو يزيد الزناتى « صاحب الحمار » وثائر أوراس الكبير ، الذى كاد أن يقضى على ملك الفاطميين ، لاجئا فى مدينة طرابلس وذلك فى ابتداء أمره . وكان قد خرج من تقيوس (من بلاد الجريد) — حيث بدأ دعوته وهو يعلم الصبيان — اثر مقتل عاملها الفاطمى بتحريض منه ، وخشية على نفسه ، فعزم على الابتعاد عن البلاد وقرر القيام بفريضة الحج . ولكن ما ان وصل الى طرابلس حتى وصلت فى أعقابه كتب المهدى فى طلب جماعة من البربر ممن حامت حولهم الشبهات ، فرأى أبو يزيد أن يهرب وعاد الى تقيوس مستترا حيث بدأ عمال عبيد الله فى البحث عنه[1] . وظلت طرابلس آمنة تقبل عمال الشيعة من القضاة والجباة فلا تذكر النصوص اضطراب منطقتها الا سنة ٣٢٢/٩٣٤ . ففى هذه السنة توفى عبيد الله المهدى والظاهر أن القبائل المحيطة بالعاصمة الغربية وجدت فى موته فرصة مواتية للتحرر من سلطان العبيديين . قام بزعامة الثورة رجل من العرب يعرف بابن طالوت القرشى ، وادعى أنه علوى وأنه ابن المهدى ، فأسرعت قبائل البربر بتصديقه والتفوا حوله ، وسار الدعى الفاطمى الجديد بأنصاره الكثيرين نحو مدينة طرابلس ، ولكن نجحت حاميتها بمساعدة الطرابلسيين من رد المهاجمين الذين زعزعتهم الهزيمة وأضعفت ايمانهم بالدعى ، فثاروا به وقتلوه ، وبعثوا برأسه الى الامام الجديد أبى القاسم[2] . وما ان انتهت الثورة فى منطقة طرابلس حتى سير القائم جيشا الى برقة حيث أنضم اليه جزء من حاميات كتامة هناك ، وتابع الجميع سيرهم نحو الاسكندرية فدخلوها ولكنهم انهزموا بعد ذلك أمام قوات الاخشيد[3] .

ولا يذكر الكتاب شيئا عن ليبيا بعد هذه الأحداث الى نهاية عهد القائم (٣٣٤/٩٤٦) وكذلك خلال عهد المنصور (٣٣٤—٣٤١/٩٤٦—٩٥٣) أى أثناء تلك الفترة التى شغلها الصراع ضد أبى يزيد اليفرنى الزناتى ، رغم ان منطقة طرابلس كان يتردد فيها صدى الثورة المندلعة من الجنوب التونسى المتاخم لها . ولكن لما كانت الحرب

(١) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ١ ص ٢٧٣ ؛ وانظر المقريزى (اتعاظ الحنفا ، ص ١٠٩) الذى يحدد بدء خروجه بسنة ٣١٦ على أيام المهدى .
(٢) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ١ ص ٢٩٥ — ٢٩٦ ؛ ابن الاثير ، ج ٨ ص ١٠٧ (ينقله المقريزى فى اتعاظ الحنفا ، ص ١٠٨) .
(٣) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ١ ص ٢٩٦ ؛ ابن الاثير ، ج ٨ ص ١٠٧

حتى نسب بعض الكتاب مقتله الى رفقاء هذه الليالى بعد أن سكروا وعربدوا عليه [1] .

أما موانى ولاية برقة فقد ازدادت أهميتها العسكرية الاستراتيجية مثلها فى ذلك مثل طرابلس . فبينما ازدادت أهمية طرابلس بعد أن أصبحت من قواعد أسطول صقلية ، استرعت موانى برقة أنظار المعز لوقوعها فى الطريق البحرى الى مصر ولامكان استخدامها للتدخل فى شئون جزيرة اقريطش (كريت) . فعندما عجزت الخلافة العباسية ومصر عن حماية مسلمى الجزيرة طلب هؤلاء المساعدة من المعز . ورأى المعز أن يستفيد من الموقف الى أقصى حد فيتخذ من تدخله فى شئون كريت ذريعة للتدخل فى شئون مصر ، ودبر خطة للعمل المشترك بينه وبين الاخشيديين . هذه الخطة كانت موضوع خطاب رسمى بعث به المعز الى صاحب مصر ونقله أبو حنيفة النعمان بن محمد الفقيه الاسماعيلى فى كتابه المسمى بالمجالس والمسايرات [2] .

حث المعز فى هذا الخطاب أبا الحسن على الأخشيد على الجهاد وامداد أهل كريت بالمراكب ، ولفت نظره الى أن تدخل الاسطول الفاطمى — تلبية لدعوة الكريتيين المسلمين — لا يستدعى تخليه عن هذا الواجب ، بل ربما كان من المصلحة أن يعمل الاسطولان سويا . وهو بعد أن طمأن الاخشيدى على مراكبه وأعطاه المواثيق والعهود طلب منه أن يبعث المراكب المصرية الى مرسى « طبرقة » [3] من أرض برقة لقربه من جزيرة اقريطش . وحدد المعز موعد اجتماع المراكب المصرية بالمراكب الفاطمية فى مرسى برقة الشرقى هذا فى أول ربيع الثانى (من سنة ٣٥٠) . وختم المعز خطابه هذا بأنه سيرسل — على كل حال — أساطيله لمساعدة المسلمين فى الجزيرة سواء وافق الاخشيدى أم لم يوافق .

كل هذا يبين أن ليبيا تمتعت بنوع من الاستقرار والرخاء كما احتلت مكانا مرموقا فى السنوات الأخيرة من عهد الفواطم بافريقية ، وأن ذلك كان نتيجة طبيعية

(١) انظر ابن خلكان، ترجمة محمد بن هانى ، ج ٤ ص ٤٩ — ٥٠ .
(٢) انظر حسن ابراهيم وطه شرف ، المعز لدين الله، طبعة القاهرة ١٩٤٧ ، الملحق الاول ص ٣٠٣ — ٣٠٤ .
(٣) هذه الكلمة موجودة فى النص فى شكل « طبنة » وهذا غير صحيح فطبنة من مدن الزاب ، ولهذا وضعنا بدلا منها « طبرقة » اى ميناء برقة الشرقى فهذا اقرب الى الصواب .

لتوجيه سياسة الخلفاء وجهة مشرقية ولا سيما على عهد المعز الذى تم على عهده فتح مصر .

الفترة الثانية :

وفى يوم ٢١ من شوال سنة ٣٦١/٩ أغسطس ٩٧٢ خرج المعز لدين الله من المنصورية قاصدا مصر وفى نيته عدم الرجوع الى المغرب. ولم يسر المعز نحو المشرق مباشرة بل أقام حوالى شهرين فى قرية سردانية القريبة من القيروان انتظارا لاجتماع رجاله وتمام عدده [1] . وفى يوم ٢٠ من ذى الحجة / ٣ اكتوبر رحل المعز عن سردانية بعد أن استخلف على البلاد يوسف بلكين بن زيرى بن مناد الصنهاجى . وتقول الرواية ان المعز عرض التفويض فى أول الأمر على قائده أبى احمد جعفر بن على ولكن هذا طلب أن يتمتع بما يشبه الاستقلال التام عن الخلافة « لبعد ما بين مصر والمغرب» حتى أغضب المعز. أما بلكين فانه تحفظ عندما عرض عليه الاستخلاف ثم قبله بشريطة أن يولى المعز القضاء والخراج لمن يراه ، ويولى الخبر لمن يثق به ، وأن يجعله قائما بين أيديهم لمواجهة العصاة بينما يكون الامر لهم [2] .

ويغلب على الظن أن هذه الرواية موضوعة فيما بعد ، وأنها تعبر عن الحالة الراهنة وقتذاك وعما اتخذه المعز من الاجراءات لضمان بقاء افريقية تحت سلطانه . فهو لم يجعل بلكين يستبد بالبلاد رغم ما أعطاه من سلطات واسعة ، بل جعل الى جانبه عاملا لجباية الأموال هو زيادة الله بن القديم ، وعاملين على الخراج هما عبد الجبار الخراسانى وحسين بن خلف الموصلى [3] ، وكان هؤلاء يتبعون المعز مباشرة بطبيعة الحال .

ويؤيد هذا الرأى ما تنسبه الرواية السابقة الى المعز من أنه كان يعرف ان المسألة ستنتهى بانفراد بلكين بالأمر اذا ما تطاولت المدة [4] . ولهذا السبب أيضا لم يكن تقليد بلكين شاملا لكل الأملاك الفاطمية فى المغرب ، وذلك أن المعز أخرج لليبيا جميعا من امارته بما فيها مدينة طرابلس التى كانت تتبع افريقية فى معظم الأحيان

(١) انظر ابن خلكان، ترجمة المعز، ج ٤ ص ٢١٤ ؛ ، اتعاظ الحنفا ، ص ١٤٤ .
(٢) المقريزى ، اتعاظ الحنفاء ، ص ١٤٢ .
(٣) ابن الاثير ، ج ٨ ص ٢٤٥ .
(٤) المقريزى، اتعاظ الحنفاء ، ص ١٤٣ .

والتى كانت تعتبر أول مدنها الشرقية .

وهكذا انشأ المعز ولاية جديدة تتكون من طرابلس وسرت وأجدابية ، وفصلها عن افريقية وعهد بولايتها الى أحد قواد كتامة وهو عبد الله بن يخلف الذى كان أسيرا عنده[1] . ولا شك أن هذه السياسة من جانب المعز كانت تهدف الى استرضاء كتامة ، رجال دولته ، باطلاق ذلك الزعيم واقطاعه النصف الغربى أو ما يزيد على النصف من ليبيا ، ثم العمل على الحد من نفوذ بلكين الصنهاجى حتى لا يفكر فى استغلال مركزه وتقوية نفوذه خشية جاره القوى . وكذلك كان الامر بالنسبة لصقلية التى ثبت فى ولايتها بنى أبى الحسين من أبناء الحسن بن على مؤسس أسرة الكلبيين بالجزيرة[2] .

ترتب على هذا الاجراء الذى أريد به اقامة التوازن بين نواب المعز ان انقسمت أملاك الفاطميين المغربية الى ثلاث ولايات منفصلة هى : افريقية (التى ستصبح تونس فيما بعد) وما بين برقة وقابس (التى أصبحت ليبيا الآن) ثم صقلية (التى انفصلت عن أملاك الاسلام بعد أن استرجعتها أوروبا بعد قليل) ، وكان ذلك تمهيدا لقيام أسر مستقلة فى كل منها .

وسار موكب المعز الضخم نحو مصر بأحمال الذهب والفضة ، يتقدمها توابيت اسلافه ، وتحيط بها قواته وحاشيته ، ووصل الى طرابلس عن طريق قابس . وفى طرابلس انتهزت فرقة من رجاله ، كان قد ساءهم أن يهاجروا الى المشرق ، الفرصة فهربوا الى جبال نفوسة ، واعتصموا بالمنطقة الخارجة أبدا على القانون ، وفشلت

(١) ابن الاثير ، ج ٨ ص ٢٤٤ — ٢٤٥ ؛ وانظر الطاهر احمد الزاوى ، تاريخ الفتح العربى فى ليبيا ، ص ١٧٣ .

(٢) نلاحظ هنا أن ابن الاثير (ج ٨ ص ٢٤٥ الذى ينقله المقريزى فى اتعاظ الحنفاء ص ١٤٤) يقول أن المعز عهد بالجزيرة الى الحسن بن على ولكن الحسن كان قد مات فى سنة ٣٥٤\٩٦٥ (أنظر سيرة جوذر ، هامش رقم ١٣٢ ص ١٨٧) . أما الذى ولى الجزيرة بعده فهو ابنه احمد الذى توفى قبل مسير المعز الى مصر ثم ابنه الثانى ابو القاسم الذى ظل يليها من سنة ٣٥٩ الى سنة ٣٧٢ (انظر حسن ابراهيم وطه شرف ، المعز لدين الله ، ص ٦٣) . ولزيادة المعلومات انظر الفصول الخاصة ببنى ابى الحسين فى Michele AMARI, Storia dei Musulmani di Sicilia : (عن بداية الحسن بن على ج ٢ ص ٢٣٧، ٢٧٥ وعن اسرة بنى الحسن فى الجزيرة ابتداء من صفحة ٢٧٩) .

مجهودات المعز فى استرجاعهم[1] . وتابع الموكب الملوكى سيره مارا بسرت وأجدابية والمعز يقيم بعض الأوقات فى بعض المواضع ، ويجد السير فى بعضها الى أن وصل برقة فى ١٤ جمادى الاول سنة ٣٦٢/٢٠ فبراير سنة ٩٧٣ ونزل بالقصر خارج المدينة[2] بموضع يعرف بمياسر[3] . وهناك فقد المعز شاعره المشهور محمد بن هانىء الأندلسى ، ويظن أنه اغتيل لمغالاته فى مدح المعز حتى اتهم بالكفر ، وذلك فى اواخر رجب/ابريل[4] . وفى برقة أيضا توفى عم المعز وهو يوسف بن القائم[5] . كما توفى مولاه جوذر الصقلبى فنقل الى القصر حيث دفن بجامعة[6] . ووصل المعز الى الاسكندرية فى اواخر شعبان/مايو ، ودخل القاهرة فى رمضان بعد رحلة استغرقت حوالى العام .

وبمجرد أن استقر بلكين فى امارته أظهر جدارة بالمنصب الكبير : فهزم الثوار الذين ظنوا أن الفرصة سنحت للتحرر من سلطان القيروان فى باغاية وفى تاهرت كما قهر زناته قرب تلمسان . والظاهر أنه شعر أو كان يشعر بقوته ومكانته فبدأ يمارس سلطاته كأمير مستقل دون أن يقيم وزنا لعمال الخليفة الفاطمى . وهكذا انتهى أمر زيادة الله بن القديم الذى كان قد عينه المعز على جباية الأموال الى الموت أو الاغتيال سنة ٣٦٦/٩٧٦ — ٩٧٧ فى سجن عبد الله بن محمد الكاتب ، الذى آل اليه تدبير دولة بلكين[7] . أما صاحب الخراج حسين بن خلف فانه كان قد ثار سنة ٣٦٤/٩٧٤ — ٩٧٥ على بلكين وجمع حوله البربر — ربما فى نفس الوقت الذى بدأ فيه النزاع بين زيادة الله وعبد الله الكاتب[8] .

ورغم هذا ظل الامير الصنهاجى يحافظ على الشكليات : من اظهار الخضوع

(١) ابن الاثير، ج ٨ ص ٣٤٤ — ٣٤٥ .
(٢) المقريزى، اتعاظ الحنفاء، ص ١٨٦ .
(٣) سيرة جوذر، ص ١٤٧ .
(٤) ابن الاثير، ج ٨ ص ٣٤٥ ؛ وانظر ابن خلكان (ترجمة ابن هانىء) ، ج ٤ ص ٤٩ — ٥٠ .
(٥) المقريزى، اتعاظ الحنفاء، ص ١٢٧ .
(٦) سيرة جوذر، ص ١٤٧ .
(٧) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ١ ص ٣٢٨ ؛ ابن الاثير، ج ٨ ص ٣٤٥ .
(٨) ابن الاثير، ج ٨ ص ٣٤٦ (النص هنا غير واضح بشكل اكيد ولكن هذا هو التفسير المقبول) .

والولاء للخليفة بالقاهرة كلما تطلبت الظروف . فعقب وفاة المعز سنة ٣٦٥/٩٧٦ أرسل بلكين بعثة الى القاهرة تحمل الى الخليفة الجديد العزيز بالله هديته وتهنئته بالولاية ، وتؤكد له الطاعة[٥] . هذا وسيسير أبناء بلكين على هذا المنهاج كلما اعتلى خليفة جديد عرش مصر .

وفى سنة ٣٦٧/٩٧٧ ــ ٩٧٨ قام عامل بلكين وهو عبد الله الكاتب بارسال اكثر من ٤٠٠ ألف دينار كان قد جمعها فى السنة السابقة قهرا من أهل القيروان الى القاهرة ، ربما لشراء رضاء الخليفة عنه ولاقناعه بأنه ليس بأقل غناء من عامله الذى مات فى سجنه . ورغم أن العزيز أمر برد المال الى أصحابه الا انه أظهر رضاءه عن بلكين فلم يكتف بأن جدد له تقليد ولاية افريقية بل ولاه أيضا على الجزء الغربى من ليبيا ، فأضاف اليه طرابلس وسرت واجدابية وما يتبعها من الاعمال[٢] . وعهد بالقيادة العسكرية لأملاكه الليبية الى أبى الفتوح يحيى بن خليفة المليانى ولكنه عزله بعد شهور[٣] . وهكذا فاتت العزيز حكمة والده المعز من فضل هذا الجزء من ليبيا عن افريقية ، واخراجه عن سلطان بلكين ، فزادت قوة هذا الأخير الذى كان يظهر الطاعة « مجاملة ومراقبة لا طائل وراءها » كما يقول ابن الاثير[٤] .

(١) ابن عذارى، البيان المغرب، ج ١ ص ٢٧٩ .
(٢) ابن الاثير، ج ٨ ص ٢٦٣ ؛ ابن عذارى، البيان المغرب، ج ١ ص ٣٢٩ (لا يذكر الا طرابلس ونواحيها فقط)، وانظر .
G. Marçais, La Berbérie Musulmane. p. 158.
(٣) ابن عذارى، البيان المغرب، ج ١ ص ٣٢٩ .
(٤) الكامل، ج ٨ ص ٢٦٤ . هذا ولو أن يوسف بلكين عمل فى السنة التالية ٣٦٨\٩٩٧ على ان يؤكد حسن ثقة العزيز فيه ، فقام باسمه بحملة كبرى فى بلاد المغرب فوصل بجيوشه الى فاس واستولى عليها ودخل سجلماسة ، وطرد عمال بنى أمية الاندلسيين ، وهدد سبتة الاموية ثم عاد الى البصرة وخربها وكانت للامويين أيضا . ثم طارد زناته اعداء الصنهاجيين حتى الجأهم الى الرمال فى اقاصى المغرب، واخضع برغواطة فى جبال اطلس وقتل متنبيهم صالح بن عيسى ، وظل مقيما بالمغرب الى سنة ٣٧٣\٩٨٣ . وخلال تجواله هذا فى المغرب كانت الخطابات الرسمية ترد اليه على البريد من القاهره تثنى على حسن بلائه ضداعداء سادته المقيمين فى مصر (انظر ابن الاثير ، ص ٢٦٤ ؛ ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ١ ص ٣٣٠ ، ٣٣٨) . ولكن عندما وصلته هناك رسالة من مصر تطلب منه اختيار وارسال الف فارس من ابطال صنهاجه ، كتب يعتذر بلزومهم له فى حربه ضد الامويين امراء الاندلس ، وهدد بأن يترك المغرب اذا ما أصر الخليفة . واكتفت القاهرة بالسكوت وعدم الرد (ابن عذارى، البيان المغرب ، ج ١ ص ٣٢٠) . ومات يوسف بلكين فى =

ورغم ان المنصور بن بلكين الذى ولى فى أوائل سنة ٣٧٤/٩٨٤ عقب وفاة والده، قام بارسال البعثة التقليدية الى القاهرة تحمل ولاءه وطاعته للخليفة بصفته الأمير الجديد للولاية التى ورث امارتها عن والده ، وتطلب بالتالى تقليد الخليفة وعهده ، ورغم أن الهدية التى حملها المبعوث كانت ثمينة تحوى من الدواب والأمتعة والطرف ما يقدر الكتاب ــ بشىء من المبالغة ــ بمليون دينارا[١] ، فان اتجاه المنصور الى التحرر من سلطان مصر واعتقاده فى استقلاله وسيادته كان واضحا منذ البداية . ويعبر عن ذلك خطبته التى خطبها فى أعيان القيروان الذين ذهبوا لتعزيته وتهنئته بمدينة أشير حيث كان يقيم . فهو بعد أن وعدهم بالخير والاحسان اليهم ، على عكس ما نهج عليه والده وجده من سياسة القهر والعنف ، قال : « وما أنا فى هذا الملك ممن يولى بكتاب ويعزل بكتاب (ويشرح ابن الاثير ذلك بأنه يعنى أن الخليفة بمصر لا يقدر على عزله بكتاب) لأنى ورثته عن آبائى وأجدادى وورثوه عن آبائهم وأجدادهم حمير»[٢] . ومع هذا فان كتاب التقليد الذى يستهين به كان مهما بالنسبة له ، فهو يقوى من سلطانه ويؤكد شرعيته ، وعلى ذلك فعندما وصل فى سنة ٣٨٢/٩٩٢ سجل من العزيز بالله بولاية العهد لابنه باديس سر بذلك سرورا عظيما وجاءته الهداية من كل مكان[٣] . حدث ذلك بعد اضطرابات كتامة سنة ٣٧٦/٩٨٦ ــ ٩٨٧ ، وسنة ٣٧٨/٩٨٧ ــ ٩٨٨ بتحريض العزيز وقهر المنصور لهم[٤] .

اواخر سنة ٣٧٣\٩٨٤ وهو فى طريقه من امام سبتة الى سجلماسة التى دخلها خزرون بن فلفول الزناتى وقتل بها عامل بلكين (ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ١ ص ٣٤١) .
(١) ابن عذارى، البيان، ج ١ ص ٣٤٣ ــ ٣٤٤ ؛ ابن الاثير، ج ٩ ص ١٤ .
(٢) ابن الاثير ، ج ٩ ص ١٤ ؛ ابن عذارى، البيان المغرب ، ج ١ ص ٣٤٣ . وانظر
G. Marçais, La Berbérie Musulmane, p. 160
هنا يظهر أن جورج مارسيه استند الى الترجمة الفرنسية لبيان ابن عذارى دون ان يرجع الى النص فهو يترجم كلمة « حمير » التى يقصد بها ملوك اليمن الحميريين بكلمة «حمير ânes » ويترتب على ذلك انه يغير فى المعنى بحيث يصبح « وورثوه عن آبائهم واجدادهم ولكن اجدادهم كانو حميرا »
(٣) ابن عذارى، البيان المغرب، ج ١ ص ٣٥٢ .
(٤) ابن الاثير، ج ٩ ص ٢٢، ٢٧ ــ ٢٨ ؛ ابن عذارى ، البيان المغرب، ج ١ ص ٣٤٥ــ ٣٤٦ ، ٣٤٨ ، وانظر
G. Marçais, La Berbérie Musulmane, p. 160 - 161

وتوفى المنصور بن بلكين سنة ٣٨٦/٩٩٦ وهى نفس السنة التى توفى فيها العزيز بالله ، ولا ذكر لليبيا الغربية التى ضمت الى دولة صنهاجة ، ولا للجزء الشرقى منها الذى ظل تابعا لمصر . ولكن بولاية باديس بن المنصور وخلافة الحاكم الفاطمى تغيرت الأمور الى حد كبير . فبعد أن كان مركز الصراع بين العزيز والمنصور فى المغرب الاوسط حيث سار دعاة القاهرة يؤلبون كتامة فى منطقة سطيف ضد تابعها القوى ، انتقل مسرح هذا الصراع الى ليبيا الغربية ومنطقة طرابلس، وذلك رغم تبادل تجديد العهد والبيعة ،وتبادل الهدايا الذى أصبح أمرا شكليا وتقليديا[1] . ففى سنة ٣٨٩/ ٩٩٩ قامت زناته بالمغرب الأقصى والأوسط بقيادة زيرى بن عطية صاحب فاس وثأرت لنفسها من الهزائم التى ألحقها بها يوسف بلكين وابنه المنصور من قبل . فزحف ابن عطية الى تاهرت ، وهناك حاصر يطوفت عم باديس ، ثم هزم الجيشين اللذين اخرجهما باديس لانقاذ تاهرت وأولهما بقيادة عمه حماد صاحب أشير، وثانيهما بقيادة كاتبه محمد بن أبى العرب. وخرج باديس بنفسه للقاء زيرى بن عطية، وعرج فى طريقه على طبنه حيث كان فلفل بن سعيد حفيد خزرون الزناتى الذى قاتل جده بلكين فى سجلماسه[2] وابن سعيد الذى لجأ سنة ٣٧٩/٩٨٩ — ٩٩٠ الى والده المنصور فأكرمه وقربه وولاه طبنة من بلاد الزاب[3] .

وطلب باديس من فلفل بن سعيد الخروج معه ولكن هذا اعتذر وطلب توليته طبنة، اقطاع أبيه، حتى يضبطها فولاه اياها . ولكن ما أن بعد باديس حتى تملكت فلفل العصبية والعداوة القديمة فمضى يفسد فى البلاد حتى باغاية . كل هذا وجموع زناته تلتف حوله ، وكذلك أعمام باديس الساخطون عليه ، حتى طمع فى امتلاك القيروان .

وعاد باديس من حملته والتقى بفلفل وتمكن من هزيمته قرب مرمجنة بعد قتال مرير راح فيه أكثر من ٧ آلاف رجل من زناته وزويلة . ولكن الثائر الزناتى اعتصم

(١) انظر ابن عذارى، البيان المغرب، ج ١ ص ٢٥٦ — ٢٥٧ .
(٢) انظر فيما قبل هامش ٤ ص ٩٧ .
(٣) ابن عذارى، البيان المغرب ، ج ١ ص ٣٤٩ ؛ ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ص ١٥٧

بالصحراء ، ثم اتجه الى منطقة طرابلس[1] . وطوال سنة ٣٩٠/١٠٠٠ ظل فلفل رافعا راية العصيان ، ولكنه لم يستطع أن يواجه قوات باديس فى معركة منظمة ، وخاصة بعد أن انفض عنه كثير من أتباعه ولا سيما عمومة باديس فلم يبق معه منهم الاماكسن وابناء محسن وباديس الذين قتلوا أثناء الصراع فيما بعد[2] . وعلى ذلك اتبع فلفل فى ثورته فنا حربيا معروفا لدى البربر وهو يتلخص فى الفرار والاقسام بالصحراء أو الجبال أمام قوات الأمير اذا ما طاردته ، ثم العودة الى مهاجمة المدن والمناطق العامرة بعد رجوعها .

ومع أن حوادث هذه الفترة مختلطة متداخلة يصعب على الباحث توقيتها بشكل دقيق فانه يمكن ترتيب أحداث ليبيا على الوجه التالى : أثناء انشغال الامير الصنهاجى بثورة زيرى بن عطية فى المغربين الأوسط والأقصى ، وخلال ثورة فلفل وانضمام الأمراء الصنهاجين اليه ، خرجت مدينة طرابلس على باديس سنة ٣٨٩/٩٩٩ عن طريق تدخل الخليفة الحاكم ، الذى رأى أن يصطاد فى الماء العكر ،فاتصل بنائب باديس بها وحرضه على الخروج على سيده . وأعلن الوالى خلع طاعة باديس وطلب ارسال قوة فاطمية للدفاع عن المدينة ولضبطها . وصدرت الأوامر من القاهرة الى والى برقة وهو يانس الصقلى الذى كان من أخصاء الحاكم بالمسير على رأس جيش لاستلام المدينة ، وتم ذلك فى السنة التالية[3] .

وهكذا كان على باديس أن يواجه تدخل الحاكم الى جانب عصيان فلفل . وبدأ يستفسر عن الغرض من دخول القوات الفاطمية طرابلس ، وعن شرعية عمل يانس . ولما لم يجد جوابا شافيا أرسل جيشا بقيادة جعفر بن حبيب تمكن من قتل يانس وهزيمة رجاله خارج المدينة ثم ضرب الحصار عليهم بعد أن اعتصموا بها[4]. حدث ذلك وفلفل بن سعيد ثائر فى المنطقة يراوغ قوات الامير الذى كان يتتبع أنباء

(١) ابن الاثير، ٩ ص ٦٣ — ٦٤ ؛ ابن عذارى، البيان المغرب، ج ١ ص ٥٩ — ٦٠ .
(٢) ابن عذارى، البيان المغرب ، ج ١ ص ٢٦١ ؛ ابن خلدون (الترجمة) ، ج ٢ ص ١٧ .
(٣) ابن الاثير، ج ٩ ص ٦٤ .
(٤) ابن الاثير، ج ٩ ص ٦٤ ؛ وانظر احمد النائب الأنصارى ، المنهل العذب فى تاريخ طرابلس الغرب، ص ٩٤ — ٩٥ .

تحركاته عن طريق عماله فى تلك الجهات . وفى ٢٣ من رجب ٣٩١/١٩ يونية ١٠٠١ وصلت كتب عامل قابس تذكر أن الثائر مر من طريق قابس فى اتجاه طرابلس . وفعلا وصل فلفل بينما انسحب القائد الصنهاجى الذى خشى الوقوع بين الزناتين من خارج طرابلس والفاطميين من داخلها ، وتفادى طريق قابس فاتجه نحو الجبل جنوبا، وخرج وفد من الطرابلسيين برئاسة واليها فتوح بن على وهو من قواد يانس لاستقباله وفتحوا له الأبواب[1] . ولما كانت الحامية الفاطمية المحصورة بطرابلس قد طلبت النجدة من مصر ، جهز الحاكم جيشا بقيادة يحيى بن على الأندلسى ، أخى جعفر بن على قائد المعز لدين الله ومنافس بلكين ، وبصحبته زيدان الصقلى الذى كان اليه تدبير شئون الحملة . ومر الجيش فى الطريق ببرقة حيث كان عليه أن يتزود منها بالمال . وأصيب يحيى بخيبة أمل مريرة اذ كانت خزانة برقة خاوية ليس فيها أموال ، فكان ذلك سببا فى تمرد الجند وعدم انتظامه ،وواصلت الحملة طريقها فوصلت فى ربيع الأول سنة ٣٩٢/يناير ١٠٠٢ الى طرابلس حيث خرج فلفل ، الذى صارت اليه الأمور ، واستقبلها . ومنذ البداية اتضح عدم الانسجام بين الزناتى الذى كان يطمع فى السيادة وبين القائد الفاطمى الذى كانت له الولاية الشرعية من قبل الخليفة ، والذى كان قد فقد السيطرة على رجاله المضطربين[2] .

ورغم هذا الاختلاف تم الاتفاق على القيام بعمل مشترك ضد باديس . وفى سنة ٣٩٣/١٠٠٣ خرج يحيى بن على على رأس قواته المصرية ، وفلفل بن سعيد بأعوانه من زناته وزويلة ، وفتوح بن على بحامية طرابلس ، واتجهوا نحو قابس وضربوا عليها الحصار فى منتصف شعبان/١٩ يونية . ولما لم يكن الوفاق تاما بين الأحلاف الثلاثة فقد فشلت مجهوداتهم ضد المدينة التونسية . وأخيرا رأى يحيى ، الذى أفلت زمام الأمر من يديه ، العودة الى طرابلس[3] . وفى طرابلس عجز القائد الفاطمى من جديد عن مواجهة الموقف : من اختلال عسكره، وتهجم فلفل ورجاله على جيشه، فقرر الانسحاب بعد أن نهبت أمتعته وخيله[4] . وهكذا وقعت طرابلس فريسة

(١) ابن عذارى، البيان المغرب، ج ١ ص ٣٦١ .
(٢) ابن عذارى، البيان المغرب، ج ١ ص ٣٦٨ .
(٣) نفس المصدر، ج ١ ص ٣٦٨ .
(٤) ابن الاثير، ج ١ ص ٧٤ .

سهلة بين يدى الثائر الزناتى الذى أعطى لحركته نوعا من الشرعية بعد أن تدخلت جيوش الخليفة الفاطمى الى جانبه .

واكتفى الحاكم بأن صب جام غضبه على قائده الفاشل ، الذى أسخط تابعه القوى فى افريقية ، وأضاع طرابلس فأعطاها لقمة سائغة لزناته أعداء الفواطم وحلفاء الأمويين فى المغرب ، حتى كاد يقتله[1] . ولم يتخذ الحاكم اجراءات أخرى ضد الأمير الزيرى الذى لم يرض له بأن يسترجع المدينة التى وهبها والده (العزيز) بعد باديس (بلكين) ، ولا ضد الثائر الزناتى الذى استخدمه كمخلب القط واستولى عليها .

وظل فلفل فى طرابلس حتى وفاته سنة ٤٠٠/١٠٠٩ — ١٠١٠ بعد أن عمل على جعل المدينة وأعمالها مملكة زناتية صغيرة يورثها لأفراد أسرته : فاتخذ قصرا للامارة، ودون الدواوين ، وقوى من شأنه حتى خلفه أخوه ورثوا الذى بايعته زناته بعده[2] . وساعدت الظروف فلفل على الاستبداد بطرابلس طوال فترة السبع سنوات هذه . ففى السنة التالية لاستيلائه على عاصمة ليبيا الغربية (أى فى ٣٩٥/١٠٠٥) حدثت مجاعة كبرى بافريقية صحبها طاعون فتاك نشر الخراب والدمار ، وشل حركة البلاد بشكل يصفه الكتاب وصفا رائعا[3] . والى جانب هذه المأساة التى أحزنت البلاد بدأ النزاع يشتد بين باديس وبين عمه فى مغرب المملكة . ولا شك أن هذا الخطر الجديد أثار اهتمام باديس أكثر من خطر الثائر الزناتى الذى قام باسم الخليفة الفاطمى . ولكن بقاء فلفل فى طرابلس كان خطرا على كيان باديس . فبعد أن خذله الفاطميون فى مصر بدأ يتطلع الى تأييد الأمويين فى الأندلس فراسلهم[4] . ثم بدأ شأنه يرتفع شيئا فشيئا فى بلاط القيروان نفسه حتى أصبح ملاذ الساخطين على باديس أو الفارين من رجاله . فعندما توفى محمد بن أبى العرب عامل افريقية ، هرب أبناؤه سنة ٣٩٩/١٠٠٩ من المنصورية ، مقر باديس ، ويمموا وجوههم نحو فلفل بطرابلس . ولكن باديس حذر والى قابس فى الوقت المناسب ، فقبض عليهم

(١) ابن الاثير، ج ٩ ص ٧٣ ؛ ابن عذارى ، البيان المغرب، ج ١ ص ٣٦٩ .
(٢) ابن الاثير، ج ٩ ص ٧٤ ؛ ابن عذارى، البيان المغرب، ج ١ ص ٣٧٢ .
(٣) ابن عذارى، البيان المغرب، ج ١ ص ٣٦٩ ؛ ابن الاثير، ج ٩ ص ٧٧ .
(٤) انظر احمد النائب، المنهل العذب فى تاريخ طرابلس الغرب، ص ٩٦ .

وقتل اثنين منهم بينما عاد الثالث وهو القاسم الذى كان قد خلف والده فى منصب عامل افريقية ، الى باديس فعفا عنه[1] • ونال باديس واقفا موقف المترقب ازاء بنى خزرون بطرابلس ، ولم يتحرك الا بعد أن بلغه نبأ وفاة فلفل سنة ٤٠٠/١٠١٠ عندئذ سار على رأس قوات كبيرة ووصل الى ظاهر المدينة فى أوائل شعبان/أواخر مارس فخرج منها وروا أخو فلفل دون قتال • وتقدم أهل المدينة مرحبين بأميرهم القديم وضربوا خيام الديباج والسرادقات الحافلة اعلانا عن سرورهم بمقدمه وحفاوة بوصوله • ولكن الأحوال الجوية لم تحقق لهم ما أرادوا فهبت الرياح ومزقت أو اقتلعت ما أقاموا، وعندئذ أدخلوه الى قصر الامارة الذى كان اتخذه فلفل[2] •

وخضع وروا بن سعيد ، الذى لم يكن له همة أخيه ونشاطه ، للأمر الواقع فأرسل الى باديس يطلب الأمان له ولمن معه ، فأجابه باديس وعوضهم عن طرابلس وأعمالها فأقطعهم نفزاوة وقسطيلة من بلاد الجريد[3] . هذا ولم يلبث بنو خزرون أن انشقوا على أنفسهم اذ يذكر ابن عذارى أن خزرون بن سعيد اختلف مع أخيه وروا فقصد الى باديس سنة ٤٠٢/١٠١١ ــ ١٠١٢ فأكرمه ومن معه من فرسان زناته ، ثم أعطاه احدى المدن فخرج اليها بالبنود والطبول[4] . وعلى كل حال عادت طرابلس الى افريقية ودولة بنى زيرى بعد أن حققت استقلالها تحت امرة الزناتيين طوال سبع سنوات •

وكان لأحداث طرابلس هذه صداها ــ كما هو المعتاد ــ فى الجزء الشرقى من ليبيا أى فى ولاية برقة التى اقتطعت من مصر فى سنة ٣٩٦/١٠٠٦ على يدى رجل يدعى الوليد بن هشام ويعرف بابى ركوة . ورغم ان الكتاب لا يربطون بين ثورة طرابلس وثورة برقة، فهناك دلائل تبين وجود علاقة بينهما أو أوجه شبه على الأقل : فعمال الثورة فى الحالتين هم زناتة وهؤلاء كانوا حلفاء بنى أمية الأندلسيين فى المغرب • ولكن حركة برقة تختلف عن حركة طرابلس بأنها اتخذت شكل دعوة أموية بدأت بالصورة التقليدية التى بدأت بها الدعوة الفاطمية فى أرض كتامة ، ونجحت فى

(١) ابن عذارى، البيان المغرب ، ج ١ ص ٣٧١ .
(٢) ابن عذارى فى البيان المغرب، ج ١ ص ٣٧٢ . عن قصر فلفل أنظر الطاهر احمد الزاوى، الفتح العربى فى ليبيا، هامش ١ ص ١٨٥ .
(٣) ابن الاثير، ج ٩ ص ٧٤ ؛ ابن عذارى، البيان المغرب، ج ١ ص ٣٧٢ .
(٤) ابن عذارى، البيان المغرب، ج ١ ص ٣٧٣ .

استمالة زناتة التى عاضدتها . وصاحب الدعوة هو الوليد بن هشام من أقرباء المؤيد هشام بن الحكم الأموى ، وكان قد فر من قرطبة عندما طلبه المنصور بن أبى عامر[1] • وبعد رحلة فى المشرق زار خلالها مصر والحجاز واليمن استقر فى برقة حيث اشتغل بتعليم الصبيان ، كما فعل أبو عبد الله الشيعى من قبل فى أرض كتامة. وسلك الرجل مسلك المصلح الاجتماعى فأظهر العدل وأمر بالمعروف وأصلح بين قبائل المنطقة المتخاصمة من عرب بنى قرة وبربر زناته ، ثم انتهز فرصة استيلاء زناته على طرابلس وفترة المجاعة فأعلن نسبه الأموى • والظاهر أنه ادعى انه الأموى المنتظر الذى يعيد مجد بنى أمية فى المشرق ، وتمكن من اقناع أهل المنطقة بأنه مقدر له ملك مصر وازالة حكم الشيعة منها •

وكان من الطبيعى أن تقبل قبائل البربر من لواته وزناته هذه الدعوة فأجابوه ونصبوه اماما عليهم • وعندما أحس باشتداد أمره جمع جموعه وهاجم مدينة برقة، وتمكن من دخولها فى رجب من عام ٣٩٥/ابريل ١٠٠٥ • ورد الحاكم على ذلك بأنه أرسل جيشا ضده ، ولكن النتيجة لم تكن باحسن منها فى طرابلس ، اذ انهزم الجيش الفاطمى الذى أنهكه الجهد والعطش ، وعاد الى مصر بعد أن ترك قائده « ينال » قتيلا فى أرض المعركة • وقوى هذا النصر من شأن الثائر فاستفحل أمره وأصبح خطرا يهدد مصر نفسها ، اذ بدأ يكاتب بعض كبار قواد القاهرة مثل الحسين بن جوهر قائد القواد ــ كما يروى ابن الأثير • وهنا رأى الحاكم أن يستعمل معه الحيلة بعد أن فشلت ضده القوة • فتقول رواية ابن عذارى التى تؤيدها رواية ابن الأثير بشكل غير مباشر ، أنه أمر بعض كبار رجال الدولة بمكاتبة الوليد واغرائه بدخول مصر ، ووعده بالمساعدة أو الانضمام الى جانبه •

ووقع الثائر فى الشرك الذى نصب له ، فدخل مصر وترددت سراياه الى الصعيد حيث فاجأته القوات المصرية ومن معه من البربر وألحقت بهم هزيمة منكرة، ففر نحو النوبة ، وهناك أخذ أسيرا وحمل الى القاهرة مشهرا على جمل ، ثم قتل فى منتصف شوال سنة ٣٩٧/٥ يوليو ١٠٠٧[2] •

(١) ابن الاثير، ج ٩ ص ٨٤ .
(٢) ابن عذارى، البيان المغرب ، ج ص ٣٧٠ ــ ٣٧١ ؛ ابن الاثير ، ج ١ ص ٨٢ ، ٨٣، ٨٤ .

وهكذا قضى على ثورة زناتة فى برقة قبل انقضاء ثورتها فى طرابلس بسبب تهور صاحبها الذى لم يعرف حدود مقدرته ، وأراد أن يحقق فى بضع سنوات ما حققه كتامة والفاطميون بعد ثمانين عاما من الدعاية الواسعة والكفاح المرير .

انتهت الأزمة السياسية اذن فى ليبيا سنة ٤٠٠/١٠١٠ وعادت الاوضاع الى ما كانت عليه أيام المعز لدين الله ويوسف بلكين بعودة طرابلس الى بنى زيرى بعد أن استقل بها بنو خزرون ، وعودة برقة الى أعمال مصر بعد أن جربت حظها لا فى الاستقلال فقط بل وفى فتح مصر أيضا . ولكن العلاقة كانت قد فترت من غير شك بين باديس وبين الحاكم بعدما قام به الاخير فى طرابلس وقابس . وعلى ذلك عمل الفاطمى على اصلاح ما أفسده ، فأرسل — بطريق البحر — الى باديس فى سنة ٤٠٣/١٠١٢ — ١٠١٣ سفارة تحمل هدية قيمة وسجلات باضافة برقة وأعمالها الى أملاكه[1] . وبذلك حقق الحاكم هدفين معا : استرضاء الأمير باديس ، والتخلص من الولاية المضطربة التى أزعجته بالأمس والقاء مسئولية ضبطها على عاتق الصنهاجى.

والحقيقة أنه رغم أن ليبيا أصبحت جميعا خاضعة لأمير تونس الا أنه كان من الصعب عليه أن يقر النظام فيها. فبعد التجاء خزرون بن سعيدالى باديس سنة ٤٠٢/ ١٠١١ — ١٠١٢ اثر اختلافة مع أخيه وروا[2] ، اغضب هذا الأخير لذلك فسار الى طرابلس بقصد استرجاعها، وضرب عليها الحصار[3] . ورأى باديس أن يضرب أعداءه الزناتيين بعضهم ببعض فعهد الى خزرون بحرب أخيه فسار الى طرابلس سنة ٤٠٣ ليمنع وروا من حصارها[4] . والتقى الزناتيون المتنافسون فيما بين قابس وطرابلس ولكنهم اتفقوا بدلا من أن يتحاربوا فدخل أصحاب خزرون فى طاعة وروا . وعندما طلب باديس من خزرون أن يفسر موقفه المريب لحق هو الآخر بأخيه فى السنةالتالية. ورغم أن المصادر لا توضح الأحداث التى وقعت أثناء ذلك وبعده الا أنه يتبين أن زناته وبنى خزرون استقروا من جديد فى منطقة طرابلس ، وأنهم فرضوا سلطانهم على المدينة حتى أصبحت علاقتها بالقيروان علاقة اسمية فقط ، وأن الرئاسة ظلت

(١) ابن عذارى، البيان المغرب، ج ١ ص ٣٧٤ .
(٢) انظر ما قبل، ص ١٠٤ .
(٣) ابن الاثير، ج ٩ ص ٧٤ .
(٤) ابن الاثير، ج ٩ ص ٧٤ .

لوروا الى أن مات سنة ٤٠٦/١٠١٦[1] .

والظاهر أن باديس أراد انتهاز فرصة وفاة وروا لاستعادة طرابلس كما حدث سنة ٤٠٠/١٠١٠ عقب وفاة فلفل، ولكن المنية عاجلته قبلأن يتحقق له ذلك. فيروى ابن خلكان أنه فى سنة ٤٠٦/١٠١٦ قصد باديس طرابلس ولم يزل على قرب منها عازما على قتالها ، وبلغ من شدة حنقه على المدينة الممعنة فى العصيان أنه أراد أن ينزل بها عقوبة أشبه بتلك التى أنزلها الحكم بن هشام بربض قرطبة سنة ٢٠٢/٨١٧: « فحلف ان لا يرحل عنها حتى يعيدها فدنا للزراعة » . وما يؤسف له أن ابن خلكان الذى ينقل هذه الرواية عن كتاب «الدول المنقطعة» — الذى لم يصل الينا — رأى الاختصار ، فقال ان رغبة باديس فى الانتقام من طرابلس كانت « لسبب اقتضى ذلك تركت شرحه لطوله » . ولكنه يستمر بعد ذلك فيقول انه عندما علم أهل البلد بهذا التهديد الخطير ، اجتمعوا عند المؤدب محرزولى المدينة وعابدها، وطلبوا منه الدعاء الى الله أن يزيل هذا البأس . ورفع الرجل الصالح يديه الى السماء وقال : « يا رب باديس ، اكفنا باديس . فهلك فى ليلته بالذبحة »[2] .

واذا ما علمنا أن باديس توفى بالمسيلة بالمغرب الاوسط عقب انتصاره على عمه حماد ، خامرنا الشك فى صحة هذه الرواية . ولكن يمكن التوفيق بين مضمونها الذى يعبر عن طبيعة العلاقة بين طرابلس وأمير القيروان ، بأن نبأ وفاة وروا وصل الى باديس وهو بالمسلية ، وأنه قرر استعادة عاصمة ليبيا الغربية فأرسل اليها أحد قواده وأوصاه بالحزم والشدة ازاء أهل المدينة الذين انزعجوا للتهديد الخطير ، وأن القوة الصنهاجية انسحبت من أمام طرابلس عندما بلغها نبأ وفاة باديس .

ولم يمنع هذا من انقسام بنى خزرون اذ دبت بينهم الفرقة فقامت المنافسة بين خليفة ابن وروا وبين عمه خزرون بن سعيد . ولكن كان التفوق لخليفة الذى استطاع اكتساب معظم زناتة الى جانبه. وازاء تفوق خليفة يئس خزرون من منافسة ابن أخيه فقرر المسير الى مصر وبصحبته أبنائه الثلاثةوهم سعيد وخليفةوالمنتصر[3] .

(١) ابن عذارى، البيان المغرب ج ١ ص ٣٨٣ ؛ وانظر احمد النائب، المنهل العذب فى تاريخ طرابلس الغرب، ص ٩٧ — ٩٨ .
(٢) ابن خلكان، ترجمة باديس بن المنصور، ج ١ ص ٢٤١ .
(٣) انظر احمد النائب، المنهل العذب فى تاريخ طرابلس الغرب، ص ٩٨ .

هذا عن طرابلس فى أواخر أيام باديس أما عن برقة فلم تكن بأحسن حالا فلم يستطع أن يضبطها الأخرى • اذ تدل الدلائل على أن الحكومة الصنهاجية لم تكن مسيطرةعليها تماما، وأن هيبةالقيروان لم تكنأكيدة هناك. ففىسنة ٤٠٥/١٠١٤ — ١٠١٥ لم تتردد جماعات عرب برقة فى مهاجمة مركب أميرية كان باديس قد سيرها نحو مصر وهى تحمل هدايا منه ومن أخته أم ملال الى الخليفة الحاكم والى أخته• واستولى المهاجمون الجريئون على كل الأمتعة ولأعلاق النفسية : من الأفراس الأصلية والسروج المزخرفة والخز السوسى المذهب[1] .

وفى هذه الظروف القلقة ظلت العلاقة فاترة مائعة بين القاهرة والقيروان ، رغم محاولات الاصلاح ، كما ظلت الأحوال مضطربة فى ولايتى ليبيا جميعا منذ ان تدخل الحاكم فى أمر طرابلس سنة ٣٨٩/٩٩٩ الى وفاة باديس سنة ٤٠٦/١٠١٦ •

خلف باديس ابنه المعز الذى يعتبر ملكه نقطة التحول الحاسمة فى الموضوع : وذلك أن الصراع السياسى بين الخليفة الفاطمى وبين تابعه الصنهاجى ، هذا الصراع الذى اتخذ على عهد باديس صفة العداء المكشوف واستعمال العنف والقوة فى ليبيا ، اتخذ على عهد المعز شكلا مذهبيا أعمق وأخطر • وذلك أن شعب افريقية اشترك مع أميره وقام الجميع يعارضون المذهب الاسماعيلى الفاطمى ، معارضة صامتة أول الامر ثم علنية بعد ذلك — كل هذا مع الاحتفاظ بالشكليات — وانتهى الامر بالانفصال التام واعلان السنة والمناداة بخلافة بغداد • فبمجرد اعتلاء المعز لعرش بنى زيرى قامت حركات شعبية كبيرة فى القيروان ضد الشيعة ، راح ضحيتها كثير من هؤلاء فى القيروان وفى المهدية[2] . هذه الحركات تبين أنه رغم أن التشيع كان المذهب الرسمى الا أن جمهرة الناس ظلت متمسكة بمذهب مالك، وأنه بعد رحيل الفاطميين لم يعد للتشيع سلطان حقيقى فى البلاد • ففى سنة ٤٠٧/١٠١٦ — ١٠١٧ أى حينما وصل تقليد الحاكم للمعز بالولاية وتلقيبه بشرف الدولة ، كان الشيعة مستترين بأحد أحياء القيروان المعروف بدرب المعلى [3] . والحقيقة أن الانشقاق المذهبى والتمسك بالسنة ظهر بوضوح قبل ذلك وفى بلاط الامراء أنفسهم • اذ يسجل ابن عذارى ، أنه رفع الى المنصور سنة ٣٨١/٩٩١ أن عبدا من عبيده قذف

(١) ابن عذارى، البيان المغرب، ج ١ ص ٣٧٥ .
(٢) ابن الاثير، ج ٩ ص ١٢٣ .
(٣) ابن عذارى، البيان المغرب، ج ١ ص ٣٨٧ — ٣٨٨ .

بعض الصحابة فأمر المنصور بقتل عبده وصلب جثته ، وأنه أعلن ذلك على الملأ فى أحياء القيروان وأسواقها[1] . وفى أواخر أيام باديس عندما أراد أن يقتطع من عمه حماد بعض أعماله ويعهد بها الى ولى عهده المعز بن باديس ، وذلك بموافقة الحاكم ، يقول ابن خلدون ان حمادا لم يتردد فى خلع طاعة ابن أخيه فقط بل خلع طاعة الفاطمى أيضا ، فأعلن ولاءه المباشر لخلافة بغداد وقتل الرافضة وأظهر السنة ورضى عن الشيخين أبى بكر وعمر[2] •

كل هذا يدل على أن السنة كانت قد عادت فعلا الى المغرب عند ولاية المعز ، وبدأت المالكية تستعيد سلطانها المفقود . وعرف الشيعة ذلك منذ البداية، وقدروا خطورة موقفهم فقررت جماعة منهم مغادرة البلاد • ففى سنة ٤٠٩/١٠١٨ — ١٠١٩ خرجت طائفة منهم مهاجرة الى صقلية عن طريق المهدية ، وخرجت معهم قوة من الخيل لحراستهم ، ولكن أهل البلاد فتكوا بهم فى الطريق واستباحوا حريمهم[3] • ولهم تقم القاهرة برد فعل ضد هذا التحرش ، وظل الحاكم والمعز محافظين على الشكليات فالحاكم يرسل الهدايا وعلامات التشريف دون أن يذكرما كان من خصمه الى الشيعة من القتل والاحراق[4] ، والمعز يبعث بأخبار المغرب وانهيار الأمويين أعداء الفاطميين بالأندلس[5] • وبينما نرى الكتاب يسهبون فيما قامت به افريقية من التحرر المذهبى من الشيعة ، لا نجد ذكرا لليبيا فى هذا المجال رغم ما يقول التيجانى من أن الفقيه أبى الحسن على بن محمد بن المنمر الطرابلسى كان أول من أظهر السنة بمدينة طرابلس ، وأنه أثناء مقاتل الشيعة فى افريقية (سنة ٤٠٧هـ) قام العامة ضدهم فى طرابلس ، وقتلوهم فى الوقعة المعروفة بوقعة المشارقة وذلك بتحريض الفقيه أبى الحسن وعلى يديه • ويتابع التيجانى روايته فيقول ان أبا الحسن كان اول من قطع من الأذان « حى على خير العمل » ، وأذن فى ذلك اليوم اذان أهل السنة بنفسه[6] • وهذا الجزء الأخير وما يتبعه من سياق الحديث والأخطاء الواضحة

(١) ابن عذارى، البيان المغرب، ج ١ ص ٣٥١ — ٣٥٢ .
(٢) انظر فيما قبل هامش ٤٨ ص ٩٧ .
(٣) انظر ابن خلدون، العبر، ج ٦ ص ١٧١ ؛ وانظر
G. Marçais, La Berbérie Musulmane, p. 164.
(٤) ابن الاثير، ج ٩ ص ١٠٦ .
(٥) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ١ ص ٣٨٩ .
(٦) التيجانى، الرحلة، ص ١٩٠ — ١٩١ .

فى التأريخ والتوفيت ، تدل على أن التيجانى خلط بين الأحداث التى وقعت فى بداية عهد المعز بن باديس وتلك التى حدثت بعد أن قطعت الخطبة الفاطمية فى افريقية • والحقيقة أنه خلط بين الفقيه أبى الحسن بن المنمر المتوفى سنة ٤٣٣ / ١٠٤٠[1] وبين الفقيه ابى الحسن بن المنتصر الذى كان فى طرابلس سنة ٤٤٦/١٠٥٤ وصول العرب اليها[2] •

وعلى عكس ما يفهم من رواية التيجانى نرى أن زناته سببت المتاعب من جديد لأمير القيروان فى طرابلس ، وزاد الأمر عما كان عليه الى سنة ٤٠٦/١٠١٥ — ١٠١٦ فانتقل ميدان الصراع من البر الى البحر • أما السبب المباشر لاستئناف الصراع ، فهو أن المعز كان ساخطا على وزيره أبى عبد الله محمد بن الحسن لأشياء منها استبداده وطمعه فى الأموال • ثم أتت الأنباء بأن أخا الوزير وهو عبد الله بن الحسن الذى كان واليا لطرابلس يمالىء زناته وزعماءهم بنى خزرون المجاورين له والمناوئين للدولة• وترتب على ذلك أن تخلص المعزمن وزيره الخائن فقتله سنة ٤١٣/١٠٢٢ — ١٠٢٣ • وعندما وصل هذا النبأ الى طرابلس ثار عبد الله لمقتل أخيه ، وتحالف مع زناته سرا وأدخلهم طرابلس وأعلن العصيان على المعز ، وفتك هو وحلفاؤه من بنى خزرون بالحامية الصنهاجية فى المدينة[3] . وبذلك عادت طرابلس امارة زناتية من جديد • وبدأ خليفة بن وروا الذى تخلص من عبد الله بن الحسن ، فى انشاء أسطول لطرابلس ، فبنى عددا كبيرا من المراكب • وعندما انضم أحد حلفائهم وهو فتوح بن القائد[4] الى جانب المعز الذى ولاه مدينة نقطة من عمل قسطيلية ، خرجت مراكب خليفة من طرابلس لمطاردته سنة ٤١٤ / ١٠٢٣ • وبذلك أصبحت طرابلس قوة بحرية يخشى بأسها ، وكان على المعز أن يتخذ الاستعدادات البحرية الى جانب قواته البرية اذ ما أراد استرجاعها • وفعلا خرج المعز فى نفس السنة من القيروان الى سوسة ، ومنها سار الى المهدية وبدأ فى حشد حملة بحرية برية . فأمر بجمع البحريين والعمل فى اصلاح القطائع واعداد دار الصناعة لانشاء

(١) انظر احمد النائب، المنهل العذب، ص ١٠١ .
(٢) نفس المصدر، ص ١٥ .
(٣) ابن الاثير، ج ٩ ص ١٣٦ .
(٤) من الجائز أن يكون فتوح هذا ابن القائد بن حماد وان يكون قد اتخذ جانب زناته ضد المعز قريبه فى أول الامر نتيجة للخلاف بين الحمادين فى أشير وبين بنى عمومتهم فى القيروان. فابن الاثير (ج ٩ ص ١٤٧) يذكر عند وفاة حماد وولاية ابنه القائد أن حمادا كان قد اصطلح مع المعز كما أن ابناءه اذعنوا له بالطاعة .

العدد والآلات الحربية اللازمة . وتم الاستعداد حقيقة فى وقت قصير . أما الحملة البرية فانه أمر من تخلف من عسكره باللحاق به فى المهدية حتى يسير الجيش الى جانب الاسطول على طول الطريق الساحلى من المهدية الى صفاقس ومنها الى قابس ثم الى طرابلس • ولكنه عاد وغير خطته فرجع الى القيروان لكى يستوفى رجاله عددهم وما يحتاجون اليه كما يقول ابن عذارى[1] . ولكن ما هو أقرب الى الصحة هو أن زناته وبنى خزرون عندما ثاروا فى منطقة اقطاعهم بقسطيلية ونفزاوة وافسدوا البلاد، جعلوا المعز يغير من خطته فسير اليهم قواته التى فتكت بهم سنة ٤١٥ / ١٠٢٤ حسب رواية ابن الأثير[2] .

هذا الحدث ، وهو تكوين بنى خزرون لأسطول بحرى فى طرابلس ، له أهمية كبرى فى تاريخ الامارة الصنهاجية وتحديد مصيرها ، فهو الذى وجه اهتمامها بصفة جدية نحو البحر ، ونحو احياء مدينة المهدية التى فقدت أهميتها كقاعدة بحرية بعد رحيل الفاطميين • وسار النشاط البحرى بسرعة غريبة ، فبعد سنتين فقط استطاع المعز أن يجهز أسطولا كبيرا بلغت عدته ٤٠٠ قطعة ، حسب قول ابن الأثير ، وسيره الى صقلية لملاقاة القوات البيزنطية التى أرسلها الامبراطور باسيل الثانى ونزلت فى أملاك المسلمين بجنوب ايطاليا وفى الجزيرة • ولكن الحملة كانت سيئة الحظ اذ ثارت بها ريح عاصفة ونوء عظيم فغرق معظمها غير بعيد من الساحل الافريقى[3] • وهكذا لم يكن من الغريب أن تكتفى الامارة الصنهاجية ، بعد غزوة الهلاليين بعد ٣٥ سنة تقريبا بالمناطق الساحلية وان تصبح دولة بحرية أولا وقبل كل شىء •

أما دخول العرب من مصر الى المغرب ، وما ترتب عليه من نتائج بعيدة المدى فى كل النواحى السياسية والاقتصادية والبشرية ، فانه كان رد الفعل المباشر لاعتراف المعز بن باديس بالعباسيين ، وقطع علاقته بالفاطميين والقضاء على مذهبهم فى افريقية، ولعنهم من أعلى المنابر • وكان ذلك نتيجة طبيعية لسياسة الصنهاجيين الذين أرادوا أن يوطدوا ملكهم على أسس متينة عن طريق توطيد علاقتهم بشعبهم الذى تمسك بسنيته، ولم يقبل «الزندقة» الشيعية منذ البداية • ولقد عبر أحداث القيروان عن

(١) البيان المغرب، ج ١ ص ٣٩٠ — ٣٩١ .
(٢) ابن الاثير، ج ٩ ص ١٤١ .
(٣) ابن الاثير، ج ٩ ص ١٤٥ .

ذلك ، أيام عبيد الله المهدى ، فى بيتين من الشعر تلطفوا فى وصولهما اليه خفيـة ، وهما :

الجور قـد رضيـنا ... لا الكفر والحماقـة
يـا مدعى الغيـوب ... من كاتب البطـاقة ؟

وانتهى الامر الى أن أضرب القيروانيون عن صلاة الجمعة فى المساجد[1] «فرارا من دعوتهم ، وتبديعا لاقامتها بأسمائهم »[2] . وهكذا اضطر المعز الى حسم الموقف ، وعدم التمسك بالشكليات التى لا طائل وراءها ، ولكنه فعل ذلك بكثير من التردد والحذر، خلال فترةاستمرت حوالى ثمانى سنوات. ففى سنة ٤٣٣/١٠٤١ بدأالاتصال بالخلافة العباسية، وأظهر رغبته فى الدعاء لها. وردعليه ديوان الخليفة القائم بالموافقة، وبعث اليه بالتقليد والخلع والأعلام عن طريق القسطنطينية[3] . ولكن ذلك لم يتم بصفة قاطعة الا سنة ٤٤٠/١٠٤٨ ، اذ قطعت الدعوة فعلا للفاطمى وأحرقت بنوده ، ودعى للعباسيين . ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل لعن بنو عبيد من أعلى المنابر ، ثم محى ذكرهم من السكة فى السنة التالية (٤٤١هـ.) ، ومنع التعامل بالنقود التى تحمل أسماءهم رغم ما أدى اليه ذلك اضطراب الأسواق [4] .

وفى هذه الاثناء حاول الخليفة المستنصر أن يعالج الامر بالسياسة والمداراة كما فعل أسلافه ، فكتب الى المعز يرغبه ويهدده ، ويقول له : « هلا اقتفيت آثار آبائك فى الطاعة والولاء» . ورد الصنهاجى يؤكد حق أسرته فى الاستقلال ، كما فعل جده المنصور عندما خطب فى أعيان القيروان بأشير، فقال فى جوابه : «ان آبائى وأجدادى كانوا ملوك المغرب قبل أن تملكه أسلافك ، ولهم عليهم من الخدم أعظم من التقديم، ولو أخروهم لتقدموا بأسيافهم » واستمر على قطـع الخطبة[5] . وفى سنة ٤٤٣ /

(١) ابن عذارى، البيان المغرب، ج ١ ص ٢٢١ .
(٢) ابن عذارى، البيان المغرب، ج ١ ص ٤٠٠ .
(٣) نفس المصدر، ج ٣٩٧ . أما ابن الاثير (ج ٩ ص ٢١٧) فانه يضع ذلك فى سنة ٤٣٥\١٠٤٣ اى بتأخير سنتين، ويضيف الى ذلك قطع الخطبة للعلويين واحراق اعلامهم . ولكن هذا غير صحيح اذ المعروف ان ذلك حدث سنة ٤٤٠\١٠٤٨ حسب ما يفصله ابن عذارى (ج ١ ص ٣٩٩)، وما يذكره ابن الاثير نفسه فيما بعد (ج٩ص ٢٣٥). ولهذا السبب لم يستطع ابن خلكان تفسير هذا التضارب فذكر أن قطع الخطبة تم سنة ٤٤٣ ثم اضاف الرواية التى تقول بقطعها سنة ٤٣٥ ، وعلق قائلا والله اعلم (ترجمة المستنصر) .
(٤) ابن عذارى البيان المغرب، ج ١ ص ٤٠١ — ٤٠٣ .
(٥) ابن خلكان (ترجمة المستنصر) ، ج ٤ ص ٢١ .

١٠٥١ تقرر اتخاذ اللباس الأسود ، لون العباسيين شعارا للصنهاجيين . فأخرجت الثياب البيض من فندق الكتان ، وصبغت بأحلك سواد ، وقطعت أثوابا ، ووزعت على الفقهاء والقضاة وخطيب القيروان وجميع المؤذنين[1] .

وكان لذلك صداه فى ليبيا جميعا . ففى طرابلس قام الفقيه أبو الحسن بن المنتصر بتحريض العامة ضد الشيعة واشترك معهم فى قتلهم ، ثم قطع من الأذان « حى على خير العمل » ، وأذن أذان أهل السنة بنفسه كما ذكرناه من قول التيجانى[2] . وفى سنة ٤٤٣/١٠٥١ وصلت الى القيروان رسالة من جبارة بن مختار أمير برقة يعلن ولاءه وطاعته للمعز ، وتفيد أنه وأهل برقة أحرقوا المنابر التى كان يخطب عليهـا للفاطميين ، وأنهم أحرقوا راياتهم وتبرأوا منهم ، كما دعوا لخليفة بغداد القائم بأمر الله[3] .

عندئذ تحطم كل أمل فى ايجاد تسوية مناسبة ، فقد مضى الزمن الذى كان يوحى فيها لمعز بقتل الشيعة ويرسل بهداياه وآيات خضوعه الى القـاهرة ، فيرد الحاكم بسجلات التشريف ولا يذكر ما كان من تابعه الى الشيعة من القتل والاحراق . ولم يقف الامر عند خلع الطاعة بل تعداه الى لعن الفاطميين ، لا على منابر القيروان فقط ، بل على منابر برقة المتاخمة والتى كانت عملا من أعمال مصر . وكان اليازورى وزير المستنصر قد فكر فى اتخاذ اجراء يرد الى الثوار الطائشين فى ليبيا وتونس صوابهم ، وكان انتقامه رائعا ؛ اذ نصح الخليفة الفاطمى بأن يطلق على المغرب جحافل العرب الموجودين فى صحراء مصر الشرقية من قبائل هلال وسليم . وكان هؤلاء قد أرغموا على المسير الى صحراء مصر بعد أن قاموا ــ منذ وقت غير بعيد ــ فيما بين الشام والحجاز ، بأعمال خرقت كل ما تعارف عليه الناس ، وانتهكت كل ما هو مقدس ، مثلهم فى ذلك مثل القرامطة . فتسجل الحوليات التاريخيـة أن بنى سليم خرجوا سنة ٣٥٥/٩٦٦ على الحجاج السائرين من مصر والشام فأخذوهـم ولم يسلم الا القليل[4] . أما بنو هلال فانهم هاجموا الحجاج سنة ٣٦٥/٩٨٦ وقتلوا منهم خلقا

(١) ابن عذارى، البيان المغرب، ج ١ ص ٤٠٥ .
(٢) انظر فيما سبق، ص ١٠٩ هامش ٦ .
(٣) ابن عذارى، البيان المغرب، ج ١ ص ٤١٦ .
(٤) ابن الاثير ، ج ٨ ص ٢٢٦ . وانظر ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة، ج ٣ ص ١١ .

كثيرا حتى بطل الحاج فى ذلك العام[1] . ووافق المستنصر على الفكرة التى تحقق له ضرب أعدائه بأعدائه ، وسهل لهم عبور النيل ، وقلدهم المغرب وكل ما يفتحون وزودهم ببعض المال والسلاح .

وخرجت هلال وسليم بفروعها من زغبة ورياح والأثبج وعدى ، ولم يأمرهم الخليفة الفاطمى بشىء «لعلمه أنهم لا يحتاجون لوصية»[2] . فكان هؤلاء العرب الذين لم يعهدوا نعمة ، ولا طالعوا حاضرة ، كلما انتهوا الى قرية تنادوا : « هذه القيروان ، ونهبوها[3] » . وبهذا الشكل استقروا فى برقة التى وجدوها مفتوحة أمامهم بعدما تحطمت زناته فى المنطقة خلال الصراع المستمر ضد صنهاجه وضد الفاطميين[4] . ثم واصلوا مسيرهم عبر ليبيا فوصلوا الى طرابلس سنة ٤٤٦/١٠٥٤ — ١٠٥٥ وملكوا المدينة . وواصلت رياح منهم والاثبج وبنو عدى المسير الى افريقية، وعاثوا فسادا فى نواحيها ، ولم يستطع المعز وصنهاجة الوقوف أمامهم أوردعهم . وانتهى أمر المعز الى أن انتقل الى المهدية فى سنة ٤٤٩/١٠٥٧[5] . واستمر العرب فى تقدمهم نحو الغرب ، وبدأوا متعاونين مع الفرع الغربى من صنهاجة وهم بنو حماد فى الصراع ضد زناته بالمغرب الأوسط ، ذلك الصراع الذى سجلته ملحمة بنى هلال الشعبية الشهيرة .

النتيجة الخاتمة

ترتب على تخريب العرب المنظم أن حلت الفوضى السياسية والاقتصادية بعد أن لجأ بنو زيرى الى الاقاليم الساحلية ، وخربت البلاد الداخلية ، مما استند عليه ابن خلدون فى نظريته التى تقول ان العرب — وهو يقصد البدو منهم — لا يتذوقون الحضارة ولا يفهمون المدنية ولا يصلحون لتكوين دولة منظمة . وأدى انكماش الدولة الصنهاجية فى المناطق الساحلية الى اهتمامها بالامور البحرية فوجهت أنظارها نحو صقلية وجنوب ايطاليا . ولكن شاءت الأقدار أن يغزوا النورمانديون الجزيرة

(١) ابن الاثير، ج ٨ ص ٢٥٦ .
(٢) ابن عذارى، البيان المغرب، ج ١ ص ٤١٧ .
(٣) ابن عذارى ج ١ ص ٤١٨ .
(٤) ابن الاثير، ج ٩ ص ٢٣٦ .
(٥) ابن الاثير، ج ٩ ص ٢٣٦ ، ٢٣٧ .

على المسلمين ، ولم يستطع بنو زيرى الوقوف أمامهم فقبلوا وصايتهم . واستلزم الأمر تدخل المرابطين من صنهاجه الصحراء بحربا ضد النورمانديين فى صقلية . ولكن رد الفعل كان وبالا على الحسن بن على ، آخر بنى زيرى ، اذ انتهى الصراع بأن احتل النورمانديون كل السواحل الافريقية من بونة الى المهدية الى طرابلس . واستتبع ذلك تدخل الموحدين المصامدة ، فأتى عبد المؤمن بن على بجيشه المنظم وطرد النصارى وحمل عرب هلال وسليم الى المغرب الأقصى وضم افريقية حتى طرابلس وبرقة الى أملاكه . وبذلك توحد المغرب جميعا واستقل عن المشرق استقلالا تاما فى القرن السادس الهجرى .

وهكذا كان لليبيا دورها الذى لا ينكر فى تلك الأحداث الجسام التى قررت مصيرها ومصير المغرب لزمن بعيد . فموقعها المتوسط بين افريقية ومصر هو الذى أملى عليها موقفها ازاء كل من حكومتى القيروان والقاهرة . فلما كانت طرابلس داخلة فى حدود افريقية ، وبرقة فى أعمال مصر ، ولما عملت كل من الولايتين باستمرار على التحرر من سلطان الحكومة التابعة لها — مما ترتب عليه استعمال القوة ضدها من جانب الحكومة التى يهمها الأمر أو تدخل الأخرى بشكل انتهازى لتحقيق مغانم عابرة على حساب جارتها — اضطرب أمر البلاد التى أصبحت مجال الصراع السياسى بين جارتيها الغربية والشرقية ، وانتهى الامر بانهاك قوى الجميع . وترتب على ضعف ليبيا أن انكشفت حدود مصر الغربية وحدود تونس الشرقية . وبذلك عملت ثورة برقة فى أول الأمر على تسهيل دخول كتامة الى أرض مصر ، كما قررت ثورتها الاخيرة اطلاق قبائل العرب عليها . وكذلك كانت الحالة بالنسبة الى طرابلس فهى عندما خرجت على الزيريين تشجع الفاطميون وتدخلوا فى أمورها مما ساعد على قيام بنى خزرون فيها . وكانت نتيجة هذا الصراع الدائم أن تبددت قوى قبائل لواته وهوارة وزناته فى ليبيا وانفتحت البلاد على مصراعيها أمام بنى هلال وبنى سليم الذين استقروا فيها وعربوها واندفعوا منها يعربون افريقية والمغربين . ثم ان انشاء بنى خزرون لأسطولهم فى طرابلس هو الذى دعا الزيريين الى اعادة مجد المهدية

الساحلية نحو البحر ، ذلك النشاط الذى اتخذ فى كثير من الأحيان صفة الجهاد البحرى ، وجاء استيلاء الهلاليين على البلاد الداخلية فوجه نشاط معظم المدن ضد أوروبا حتى العصر الحديث .

النظرية العنصرية

— نقد و تحليل —

الدكتور احمد الخشاب

تمهيد

يفرق علماء الدراسات الانسانية بين المجموعات البشرية على أساس المظهر الفيزيقى الخارجى والصفات الجسمية والمميزات الحيوية لهذه المجموعات . ولم يستطع الباحثون أن يتفقوا بصدد تصنيفهم للسلالات البشرية على أسس ثابتة محددة ، ومن أجل هذا نجد عدة تقسيمات للناس : كل منها بحسب الصفة أو الصفات التى يتخذها العالم أساسا للتقسيم . ويكفى أن نشير فى هذا المجال الى أن أهم المميزات التى تستخدم للتفرقة بين المجموعات الانسانية المختلفة تدور حول .

(١) لون البشرة[١]، (٢) لون الشعر ، (٣) شكل الشعر[٢]، (٤) لون العين .

(٥) نسبة عرض الرأس[٣] الى طولها ، (٦) نسبة عرض الأنف الى طوله ، (٧) توزيع شعر الجسم (٨) طول القامة . (٩) درجة بروز القسم الأسفل من الوجه[٤] أو عدم بروزه .

(١٠) ثم أخيرا فى وقتنا الحاضر يتجه علماء الانتروبولوچى الى الاستعانة بتحليل

---

(١) Leucodermi بيض البشرة
Xanthodermi سود البشرة
Melanodermi صفر البشرة
يتوقف اختلاف لون الجلد على مقدار الحبيبات الملونة التى توجد فى أعماق البشرة

(٢) Leiottrichy الشعر المستقيم
Cymotrichy الشعر الموج
Ulotrichy الشعر المفلفل

(٣) Caphalic Index
Dolicho Cephalic الراس طويلة اذا نقصت النسبة عن ٧٥
Meso Cephalic الراس متوسطة اذا كانت النسبة ٧٥، ٨٠
Brachy Cephalic الراس عريضة اذا زادت النسبة عن ٨٠

(٤) Prognathism and Orthognathism.